الفصل الرابع

بطل النهضة
محمد بن مكي الجزيني

تمهيد .

١ – السيرة الأوّليّة .

٢ – السيرة الفكريّة العملانيّة .

٣ – ما مكث من فكر الشهيد وعمله .

بطل النهضة

محمد بن مكي الجزيني

تمهيد

(١)

من المفهوم أنه خلال القرنين الفائتين تقدّم جبل عامل خطوة واسعة نحو التأسيس لكيانيّته الجديدة. الأمر الذي يمكننا اليوم، بوصفنا مُراقبين من موقعنا العالي في الزمان، أن نلحظه في ملمحين:

الأول: أنه غدا ذا حكم ذاتي بمعنى من المعاني. بعد أن كان مُجرّد تجمّع ظرفي. أملاه على أهليه، في حينه، مصابهم بخسارة أوطانهم التاريخيّة. ثم اضطرارهم اضطراراً إلى اللجوء إلى أقرب بقعة بدت لهم مأمناً، يمنحهم حدّاً مقبولاً من الأمن. حقاً أن ذلك الحكم لم يكن أكثر من إقطاع. وهو في مفاهيمنا السياسيّة اليوم شكل مُتخلّف جداً من أشكال الحكم. لكننا، إذ نرى فيه خطوة مُتقدّمة، ننظر إلى الأمور بمنظار نسبي، ونزنها بميزان ظرفها وزمانها. وعلى هذا، فإن حكماً إقطاعيّاً، على رأسه مَن يألفهم ويألفونه، لهو خير من أن يُترك الناس هملاً لا راعي لهم. وبهذا البيان يكون ذلك الحكم الإقطاعي، على سيئاته الكثيرة، خطوة إلى الأمام.

الثاني: أنه خلال المدّة نفسها تأسّس له وفيه أمر جديد، يفوق الحكم ونظامه أهميّة. بدا لنا في أولئك الروّاد السبعة. الذين بينّا في الفصل السابق أنهم كانوا تعبيراً عن توق عام. هنا أيضاً، ينبغي أن نفهم أولئك الروّاد بوصفهم مُمثّلين للثقافة المحليّة المأزومة. التي كانت في أمسّ الحاجة إلى تأمّل العارفين، وإلى رفدها وإعمالها. ومن هنا فإن أولئك الروّاد كانوا نموذجاً صافياً لِما نسمّيه اليوم بالمثقّف العُضوي. الذي يأخذ صفته من أنه يقف في موقع وسط بين الثقافة الخاصّة وبين حملَتها. فهو، بوصفه عضوياً، يأخذ من الثقافة المحليّة ويمنحها. فتكون مادّة عمله وموضوع

إبداعه . كما يكون التسامي بها غاية وهدف الإبداع . وأيضاً ، فهو بوصفه عضواً كامل العضويّة في مجتمعه ، لا يُعاني من أدنى صعوبة لا في الأخذ ولا في العطاء . وتلك مرتبة كانت وما تزال محفوظة للفقيه دون مُنازع .

ذلك الإنجاز ذو الوجهين ، وإن يكن بدا للعيان بعد أن بدأ جبل عامل يسلك طريقه نحو الحريّة . لكنه ، من دون ريب ، نهض على قاعدة أعرض من ذلك زمنياً بكثير . بحيث يصحّ لنا أن نعتبره ثمرةً لمُجمل الأحداث التي تتالت منذ البلاء الصليبي . ومن هنا قدّمنا القول أنه ، أو بالأحرى أنهما قد حدثا خلال قرنين .

لكننا من موقعنا في الزمان ، الذي يمنحنا أن نستشرف مستقبل الأيام الماضية ، نستطيع أن نرى في ذلك الإنجاز المزدوج باباً مفتوحاً على ما هو أكمل . أفضى إلى كلا جانبيه . أفضى إلى الجانب الثقافي . وأفضى إلى الجانب السياسي . وارتقى بهما . ومعلوم أن السياسة ، أعني لُبّها مفهوم الشرعيّة بالذات ، يكون في أحسن أحواله ، إذ يُستنبَط من الثقافة . إذ ذاك يسلك أقرب الطُرُق وأيسرها إلى ضمير أهلها . ولا يُعاني من مشكلات جِديّة أو دائمة في الاستقرار في وُجدانهم .

أُشير بذلك إشارةً إلى التطوّر التالي في الحياة الثقافيّة والفكريّة في جبل عامل . وأخذ طابع نهضة . وكان بطله محمد بن مكّي الجزيني . الأكثر شُهرةً بلقب الشهيد الأول . الذي نُخصّص هذا الفصل له ولفكره وأعماله .

(٢)

وابن مكّي رجل لا كالرجال . إنه من ذلك النمط الذي يترك من بعده عالَماً غير الذي أتى إليه . بحيث لا يسعك إلا أن تأخذ دوره في اعتبارك ، وأنت تعمل على مداه الحيوي . الذي عمل فيه ، أو الذي تأثّر بأعماله لسبب أو لآخر .

والبطل ، بالمعنى التاريخي أو الحضاري ، هو ذلك الإنسان الطليعي ، ذو القدرة على إدراك مواصفات وخصوصيّات اللحظة التاريخيّة التي يعيش فيها ومقُتضياتها . وذو القُدرة أيضاً على التماهي معها ، والعمل بما تقتضيه وتطلبه . وذو القدرة ، ثالثاً ، على إغراء الناس على السير خلفه على الطريق الذي شقّه هو . إنه كالدليل ، يُحسن بطريقة ما اكتشاف الطريق الصحيح ، أو الذي يرى أنه دون غيره الصحيح ، من بين الطرُق الكثيرة المُتشعّبة . ويُحسن قيادة مَن وراءه على ذلك

الطريق، نحو الهدف المنظور. وهذان شرطان مُتكاملان. فلو أنه تمتّع بالرؤية الصادقة، دون أن يملك إلى جنب ذلك موهبة القيادة وسحر القائد، لأمكن القول فيه إنه صاحب رؤية مثلاً. لكنه بالتأكيد لن يستحقّ إسم البطل.

إذن، فنحن هنا أمام مُركّب من الذات / الشخص ومن مُضطرَب حياته. وكما أن الدور قد نجم عن التزاوج الناجح بين العنصرين، فإن البحث يجب أن يكون على صورة الحقيقة. وعلى هذا فإننا سنبدأ بعمارة سيرة للرجل تتناسب مع غرضنا منها الآن.

١ - محمد بن مكّي الجزيني

١ - السيرة الأوليّة

(١)

مثل عامّة الكبار الذين ارتفعوا من الغمار، فإن الأجزاء المُبكّرة من سيرة ابن مكّي مجهولة تماماً. والباحث لا يبدأ في التعامل مع وثائق مؤكّدة، تتصل بسيرته، إلا منذ أن بدأ يتلقّى الإجازات تباعاً من شيوخه في الحلّة.

والحقيقة أن فترة العراق من ميادين سيرته، هي من أفصح الفترات عن أعماله. وذلك بفضل التقاليد الأكاديميّة الراسخة هناك. التي كانت تُعطي أهميّة خاصّة للإجازة. خصوصاً وأن أكثر الإجازات التي تلقّاها هناك قد وصلتنا بنصّها، مُحلاّة بذكر مكان صدورها وتاريخه. فقدّمت لنا بذلك مساهمة ثمينة جداً في عمارة سيرته. وفي المقابل، فإن أكثرها غموضاً يرجع إلى أيام استقراره في وطنه. بعد سنوات التطواف في البلاد دارساً مُتحمّلاً. والحقيقة أيضاً أنه لو لا تقاطعات رصدناها واستفدنا منها، بين التاريخ الرسمي، وبين بعض أبرز أعمال الشهيد وأبينها عن مقاصده في تلك الفترة، لكنّا عاجزين تماماً عن تركيب تصوّر مُنسجم لتلك الأيام الشّداد ذات الخطر.

(٢)

وأهون الأمور في سيرة أي إنسان مولده. أعني مكان ولادته وزمانها. وليس في اليد نص على أحد هذين. لكننا كنا قد عرفنا من السيرة التي علّقناها لوالده آنفاً، أن هذا كان يُقيم في جزّين.

وأنه كان حياً عام ٧٢٨ هـ/ ١٣٢٧ م . فمن هنا نظن ظناً قوياً أنه وُلد وعاش في تلك القرية الجبليّة . التي نفترض أن القارئ بات يعرف عنها ما يكفي . وأن مولده كان في تاريخ ما لايبعد كثيراً عن ذاك .

لكن السيد حسن الصدر (ت : ١٣٥٤ هـ/ ١٩٣٥ م) يقول : «تولّد رضي الله عنه سنة أربع وثلاثين وسبعمائة بلا خلاف»[١] . (في النسخة : «وتسعمائة» وهو خطأ مطبعي على الأرجح) . ولسنا نعرف سنداً لهذا الكلام، الذي ساقه سوق الأمر الثابت المؤكّد . ثم اننا لانعرف معنىً لنفي الخلاف في أمر لم يعرض له أحد من قبله . اللهم إلا المُحدّث النّوري (ت : ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م)[٢] . ولم يذكره قدماء مَن ترجموا للشهيد على كثرتهم . ومع ذلك فإننا سنعتبره مؤقتاً تاريخاً مقبولاً لا لشيء إلا لأنه يتناسب مع حياة والده .

من الثابت أنه في السنة ٧٥١ هـ/ ١٣٤٥ م تلقّى أُولى إجازاته في الحلّة من شيخه محمد بن الحسن بن المُطهَّر الحلّي (ت : ٧٧١ هـ/ ١٣٦٨ م)[٣] . فإذا أخذنا بذلك التاريخ لمولده، فهذا يعني أنه كان إذ ذاك في السابعة عشرة . وطبعاً هو لم ينل تلك الإجازة من شيخ الحلّة الأكبر آنذاك، إلا بعد أن قضى فيها وفي جوّها الدراسي ردحاً من الزمن . الأمر الذي يُلزمنا برفع تاريخ دخوله إليها عدّة سنوات إلى الوراء . خلاصة الجمع بين ذلك كلّه، أنه دخل الحلّة وهو في أوائل العقد الثاني من العمر . وانتظم في سلك الدراسة فيها انتظام شخص ناضج، وليس على نحو ما يفعل طالب مُبتدئ . وذلك بمُجمله أمر ليس من السهل التسليم به . لذلك فإننا نميل إلى رفع تاريخ ولادته زُهاء عقد من السنين . يؤيّد ذلك أن صديقه محمد بن محمد الجزري، الذي عرفه معرفة وثيقة، يقول في الترجمة التي وضعها له : «وُلد بعد العشرين وسبعمائة»[٤] . ومن المُستبعَد جداً أن تعني «بعد» فارق أربع عشرة سنة .

مهما يكن، فإن الشهيد شخَص إلى الحلّة . وفي أثناء خمس أو ست سنوات من الدراسة فيها، تلقّى إجازات ضافية من أعرف شيوخها . استوفى ذكرهم جميعاً المُحدّث النّوري[٥] . كما أن

---

١ . « تكملة أمل الآمل » / ٣٦٥ .

٢ . حسين النوري الطبرسي : «مُستدرك الوسائل» . ط . طهران ١٣٨٢ هـ : ٣/ ٤٣٧ .

٣ . عباس القمّي : «فوائد الرضويّة في علماء مذهب الجعفرية» . ط . طهران، لات/ ٤٢٩ .

٤ . «غاية النهاية في طبقات القُرّاء» . تحقيق ج . برجستشراسر، ط . القاهرة ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م: ٢/ ٢٦٥ .

٥ . «مُستدرك الوسائل» : ٣ / ٤٤٢ وما بعدها .

أكثر هاتيك الإجازات ماتزال مُسجّلة بتواريخها في « أمل الآمل » للحرّ العاملي ، و «بحار الأنوار/ المُجلّد الخامس والعشرين» للمجلسي ، و «لؤلؤة البحرين» للبحراني ، و «تكملة أمل الآمل» للسيد حسن الصدر . أبرزها إجازة ابن المُطهّر الآنفة الذكر . وإجازة ابن نُما ، الحسن بن أحمد سنة ٧٥٢ هـ/ ١٣٥٠ م . وإجازة عبد المُطّلب بن الأعرج في السنة نفسها . وإجازة علي بن أحمد المطار آبادي سنة ٧٥٤ هـ/ ١٣٥٢ م . وإجازة محمد بن مُعيَّة سنة ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤ م .

المُدقّق في تواريخ تلك الإجازات ومضامينها ، يتأكّد عنده ما قلناه قبل قليل . أعني أنه كان عندما دخل الحلّة في سن الشباب المُكتمل ، وربما على درجة من النضج العلمي . إذ ليس من المعقول أن ينتظم طالب مُبتدئ في الدراسة على أساتيذ كبار ، في موضوعات عالية ، لينال إجازاتهم في سنة أو اثنتين أو أكثر قليلاً . ونحن نعي جيداً أن هذه المُلاحظة تزيد الأسئلة التي نعالجها تعقيداً . وقد وقعنا على مثل ذلك فيما علّقناه على سيرة الرائد أسد الدين الصائغ الجزيني . ولسنا نملك أن نقول هنا أكثر مما قلناه هناك . فأين يمكن أن يكون قد وصل الشهيد إلى ذلك المستوى من النضج إن لم يكن في جزين؟ إذن ، فهل نحن نعرف عن جزين مايكفي؟ وهل كانت إمكاناتها الإعداديّة أعلى بكثير ممّا تُعطينا إياه المعلومات التي بين أيدينا؟ وهل كل مَن أتينا على ذكرهم من الروّاد من أبنائها هم كل مَن أنجبتهم قبل الشهيد؟ أم أن هناك غيرهم ممن عفّى الزمان على آثارهم وضاعوا؟ ثم ماذا كان دور والده في إعداده؟ أسئلة لسنا نملك عليها جواباً .

من المُؤكّد أنه لم يخرج من الحلّة إلا بعد أن غدا أحد شيوخها ، وصاحب إحدى حلقات التدريس فيها . تشهد لذلك أول إجازة صدرت عنه لعدد من تلاميذه فيها . موجودة بنصّها حتى الآن . صدرت «لاثنتي عشرة ليلة خلت من شعبان سنة سبع وخمسين وسبعمائة بالحلّة»[٦] . وهي سنة خروجه منها .

من الحلّة انطلق في رحلة واسعة . أقام مدّة في بغداد . وفيها قرأ القراءات ، كما يحدثنا صاحبه وصديقه الجزري[٧] . كما استجاز شمس الأئمة الكرماني ، محمد بن سعيد القرشي ، الفقيه الشافعي البارز . ونصّها في «بحار الأنوار» . تاريخ صدورها «في أوائل جُمادى الأُولى لسنة ثمان وخمسين

---

٦ . « رياض العلماء» : ٣ / ٣٧٤ – ٧٥ .

٧ . «غاية النهاية» : ٢ / ٢٦٥ .

وسبعمائة»[٨]. وهي تؤرّخ ضمناً لخروجه من الحلّة، وبدء رحلته العلميّة. ومنها إلى دمشق و مقام الخليل إبراهيم والقاهرة و مكّة والمدينة. وفيها، أعني رحلته، قرأ على «أربعين شيخا من علماء السّنّة». ذكر ذلك وأحصى شيوخه في إجازته لابن الخازن الحائري، التي أصدرها في دمشق سنة ٧٨٤ هـ/ ١٣٨٢م. ونصّها في «بحار الأنوار» أيضاً[٩]. وبذلك سنّ سُنّة حسنة. سار عليها فقهاء جبل عامل من بعده قرنين. وما انكسرت إلا بعد وبسبب قتل العثمانيين الشيخَ زين الدين بن علي الجباعي، الشهير بالشهيد الثاني سنة ٩٦٥ هـ/ ١٥٥٧ م.

يجب علينا الآن أن نتساءل عن خبيء ِتلك الرحلة. التي تبدو لنا ابتداعاً خارجاً على المألوف. على أن العمل بذاته محمود. وليس فيه مايؤاخذ عليه.

فلنلاحظ، أولُ، أنها إحياء لتقليد عريق. درجت عليه أجيال بعد أجيال من أهل الفقه والحديث. لكنه كان قد غدا مهجوراً في زمان الشهيد. والتقليد يرجع إلى ماقبل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. أي إلى ما قبل استواء المذاهب على مواقعها، واكتسابها بُنى نهائيّة مُغلَقَة. ومذ ذاك، وبسبب البنُى المنهجيّة المُحكمة المختلفة ذات الطابع الجغرافي أيضاً، أخذت الحركة الفكريّة، خصوصاً في إطار الفقه والعلوم المُساعدة، تدور في محاور منفصلة، لكلٍ منها قوانينه الخاصة به. وكان من النتائج التي ترتّبت على هذا التطوّر المعكوس، أن أصبحت الرحلة العلميّة جزءاً من الماضي الذي بدا أنه لن يعود. وهي التي كانت يوماً عنصراً ذا مستوى رفيع في تقاليد التحمّل والطلب. بحيث أن لقب الرُّحَلَة، إذ يقُرن باسم مُحدّث أو فقيه، دلّ على تنويه خاص.

من البيّن أن الشهيد كان يتطلّع إلى أمر جلل. وإلا لماذا يخوض تلك المخاطرة غير المأمونة العواقب. خصوصاً أنه أول فقيه شيعي يركبها. بعد أن وصلت الحالة المذهبيّة إلى مُستقرّها. ترُى هل كان يصدر بذلك عن توق شخصي، ونحن نعرف أيَّ طُلعة كان؟ أم عن منهج آمن به، كما فعل خلَفه الشهيد الثاني بعده بما يقلّ عن قرنين؟ وسنقف عنده الوقفة التي يستحقّها. أم أن الأمر كان، بكل بساطة، جزءاً من خطّة يعمل عليها؟

---

٨. «بحار الأنوار»: ١٠٧/ ١٨٣ - ٨٤.

٩. ١٠٧/ ١٨٦-٩٢.

أسئلة نعرف أننا لن نصل من طرحها إلى جواب مؤكّد. لأنها سرّ إنسان كبير في مطالبه ومقاصده، عاش قبل ما يزيد على الستة قرون. بل أن نضع جُملة احتمالات. نُرجّح أن الجواب الصحيح ضائع بينها.

المهم أنه بما اجترح عبّد من بعده طريقاً لبلده سار عليه قرنين. بحيث أن جبل عامل ظلّ من بعده مُنفتحاً دون حدود على مراكز العلم من حوله. وبحيث أن رحلات كبار فقهائه إليها كانت تقليداً مُتصلاً. لكنه كان انفتاحاً من جانب واحد. فما سمعنا أبداً برحلة سلكت الاتجاه المعاكس. ولو أن الزمان أفصح له عن مكنونه، يوم كان يُعبّد بقدميه ذلك الطريق الصعب، لأراه عجباً. وخصوصاً لأراه كيف سيكون ذلك الانفتاح الذي يؤسّس له، من جملة أسباب اجتمعت على النهضة التي سيصنعها لبلده، فأدّت إلى تدميرها. ولكن، ويالتصاريف المقدور، كيف كان ذلك الذي بدا في العاجل نكبة، خيراً في الآجل وبركة. إذ حمل رجالُ النهضة فكرَها، وهو هو فكر الشهيد، وزرعوه في الآفاق. وما كان له أن يُثمر وينمو، لو ان الأمور سارت على ما تشتهي أنفسهم. وسنُفصّل الكلام على هذا في موقعه. وما هذه إلا عُجالة سقُناها على سبيل التهيئة. وعلى سبيل عمارة سياق حي، يعكس الحاضر المُتحرّك إلى صيرورته.

(٣)

عام ٧٦٠ هـ/ ١٣٥٨م تخميناً، عاد الشهيد إلى بلده، مُتوّج الهام بمجد العلم. حتى لقد وُصف فيما بعد بأنه «أفقه جميع فقهاء الآفاق»[١٠]. وهي رتبة وُجد مَن يعترف له بحملها من خارج حدود مذهبه. يشهد لذلك قول الجزري فيه: «شيخ الشيعة والمجتهد في مذهبهم»[١١]. ولقد أُتيح لي مرّة أن أطّلع في «مكتبة الإمام أمير المؤمنين العامّة» في النجف الأشرف على سلسلة شاملة لطُرُق الحديث عند الشيعة الإماميّة، وضعها اثنان من كبار فقهائها. وفيها يبدو بوضوح أن أغلب الطُرُق تلتقي عند الشهيد. وهذا دليل ولا أبين على قوّة حضوره العلمي مُحدّثاً ومُتحمّلاً.

والقارئ الحصيف، الذي وعى قلبه ما قدّمنا به عن أزمة جبل عامل وعلاقتها بولادته العنيفة، لا يجد أدنى صعوبة في تصوّر وقع ذلك الحدث الساطع على وطن الشهيد. فلأول مرّة يكون لجبل

---

١٠. «روضات الجنات»: ٧/ ٣.

١١. «غاية النهاية»: ٢/ ٢٦٥.

عامل مَن يكون له حضور القُطب، بما ينطوي عليه معنى القطب من قوّة جذب نحو المركز. حيث تكمن الثقافة المأزومة. فلنتمعّن الآن في أن قسطاً أساسياً من أزمة بلده آنذاك يعود إلى القَطْع مع تاريخه الخاص، ومع ثقافته الخاصة في آن. وها قد جاء الآن الرجل الرمز، بما يحمله من ثقل علمي. هو خلاصة نقيّة للثقافة إياها. الذي تنعقد عليه الآمال في تحريرها من أزمتها. وفي تحريك ثقافتها إلى موقع فاعل. ونحن لا ندّعي أننا بهذا التحليل ننقل صورة أمينة لحالة وعي مُوثّقة، كانت قائمة عند أوسع الجماهير. وإنما نقرأ تلك الأيام بطريقة إرتجاعيّة، أي من المستقبل إلى ماضيه الحاضر. بحيث نفهم الحاضر من صيرورته المُستقبلة. وما ألجانا إلى هذا المركب الوعر، مع علمنا بما ينطوي عليه من مخاطر جمّة، إلا عول المعلومات.

عاش الشهيد بعد أوبته خمساً وعشرين سنة. أمضى معظمها في جزين، كما يبدو. وكان كثير التردّد إلى دمشق. بحيث كان له فيها مجلس مقصود[١٢]. كما زار الحلّة عام ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤م، حيث التقى ابن مُعيّة، الوحيد الذي كان ما يزال على قيد الحياة من شيوخه فيها. فاستجازه لابنه رضي الدين أبي طالب محمد[١٣]. والظاهر أن هذا لم يكن السبب الرئيس ولا الأكثر أهميّة للزيارة. بل هناك أسباب أُخرى سنذكرها في محلّها المناسب. وفي السنة ٧٨٥ هـ/ ١٣٨٣ م قبضت عليه السلطة المملوكيّة. وأُودع سجن القلعة بدمشق. ونهار الخميس التاسع من جُمادى الأُولى سنة ست وثمانين وسبعمائة، حسب رواية ولده الشيخ علي[١٤]، الموافق ٢٧ تموز ١٣٨٤ م، ضُربت عنقه، ثم صُلب، ثم أُحرق، في رحبة القلعة.

(٤)

ترك ابن مكّي تراثاً كبيراً وغنيّاً. أغلبه وأكثره أهميّة في الفقه. وهو ما يزال، بعد ستة قرون ونيّف، يُعتبر من أعاظم الفقهاء المُجدّدين[١٥] والحقيقة أنه منح التشيّع ما لم يمنحه إياه أحد من قبله

١٢. زين الدين بن علي الجباعي: «الروضة البهيّة في شرح اللمعة الدمشقية»، ط. القاهرة ١٩٧٢/ مُقدمة الشارح.

١٣. «مستدرك الوسائل»: ٣/ ٤٣٩.

١٤. «روضات الجنات»: ٧/ ١٣.

١٥. اقرأ ملاحظة الخوانساري على مكانته في هذا النطاق في: «روضات الجنات»: ٧/ ٤.

فكرياً وحضارياً. وما من امتحان للفكر أعسر من هذا. وسنبيّن ذلك في القسم التالي. لكنه ترك أيضاً شعراً جميلاً. لن تكمل صورة صاحبه عند القارئ مالم يطّلع على نماذج منه على الأقلّ. تصلح مطلاً ممتازاً على شخصيّته الجامعة. ثم إنه من بواكير ما وصلنا من الشعر العاملي، بعد شعر سلفه الكبير ابن الحسام.

غنينا بنا عن كل مَن لا يُريدنا — وإن كثُرت أوصافه ونعوته
ومَن صدّ عنّا حسبه الصدّ والقلا — ومَن فاتنا يكفيه أنّا نفوته[16]

ولا أبتغي الدنيا جميعاً بمنّة — ولا أشتري من المواهب بالبذل
وأعشق كحلاء المدامع خلقة — لئلا أرى في عينها منّة الكحل[17]

عظمت مصيبة عبدك المسكين — في نومه عن مَهر حور العين
الأولياء تمتّعوا بك في الدّجى — بتهجّد وتخشّع وحنين
فطردتني عن قرع بابك دونهم — أتُرى لعظم جرائمي سبقوني
أوجدتهم لم يذنبوا فرحمتهم — أم أذنبوا فعفوت عنهم دوني
إن لم يكن للعفو عندك موضع — للمذنبين فأين حُسن ظنوني[18]

بالشوق والذوق نالوا عزّة الشرف — لا بالدلوف ولا بالعُجب والصلف
ومذهب القوم أخلاق مُطهّرة — بها تخلّقت الأجساد بالنُّطف
صبر وشكر وإيثار ومخمصة — وأنفس تقطع الأنفاس باللّهف
والزهد في كل فان لا بقاء له — كما مضت سُنّة الأخيار والسلف
قوم لتصفية الأرواح قد عملوا — وأسلموا عرض الأشباح للتلف
ما سرّهم رثّ أطمار ولا خلق — كالدرّ حاضره مخلولق الصدف
يا شقوتي قد تولّت أُمّة سلفت — حتى تخلّفتُ في خلف من الخلف
يُنمّقون تزاوير الغرور لنا — بالزّور والبهت والبهتان والسّرف
ليس التصوّف عكّازاً ومسبحة — كلا، ولا الفقر رؤيا ذلك الشرف
الفقر سرّ وعنك النفس تحجبه — فارفع حجابك تجلو ظلمة التلف
وفارق الجنس واقر النفس في نفس — وغب عن الحس واجلب دمعة الأسف

---

١٦. «أمل الآمل»: ١ / ٨٤.

١٧. محمد علي تبريزي: «ريحانة الأدب». ط. طهران ١٣٦٩ هـ: ٢ / ٣٦٦.

١٨. «روضات الجنّات»: ٧ / ١٤.

واتلُ المثاني ووحّد إن عزمت على ذكر الحبيب وصف ماشئت واتصف
واخضع له وتذلّل إن دعيت له واعرف محلّك من إياك واعترف
وادخل إلى خلوة الأذكار مُبتكراً وعُد إلى حانة الأذكار بالصّحف
وإن سقاك مُدير الرّاح من يده كأس التجلّي فخُذ بالكاس واغترف
واشرب وسقّ ولا تدخل على ظمأ فإن بقيت بلا ريّ فوا أسفي [١٩]

(٥)

تلك هي السيرة الساذجة لرجل، نعتقد أنه من بين كبار فقهاء الشيعة، آخر المؤسسين الكبار. ترك أثراً بالغاً باقياً. ما زال يتعاظم، على التفكير الفقهي عندهم. وتالياً على مُجمل الشؤون الإنسانيّة للمتأثّرين بهذا الفقه.

هذه السيرة ممّا يمكن لأيّ كان، من أهل البحث والنظر، أن يحصل عليه من أقرب الموارد. كما أنها، بالقياس إلى ما نتوقّعه من قراءة سيرة بطل، لا تقول ماهو غير عادي، ممّا يستدعي السؤال عن أسبابه الخاصّة. غير تلك النهاية العنيفة. التي تبدو لقارئ السيرة عملاً غير مفهوم. وكأنها جملة مقطوعة عن سياقها. ولذلك فإن كُتّاب سيرته من بعده لم ينجحوا إطلاقاً في فهم وتحليل علّة الصيت الهائل الذي اكتسبه. فجاء عملهم مُجرّد صدى للموقع العالي الذي اكتسبه الشهيد عند الناس في زمانه. لكن هؤلاء، كما هو شأن الجمهور دائماً، بارع في حفظ الانطباع. لكنه عاجز عن التحليل والتعليل. والحقيقة أن عملنا في هذا اقتصر حتى الآن على جمع المعلومات. ثم تحريرها من المبالغات والأوهام، وأيضاً من التفصيلات غير ذات العلاقة بعمود السيرة. على أننا نعرف جيداً، من دراسات سابقة، ومن طول معاشرة للموضوع، أنها قاصرة جداً عن أن تكون صورة صادقة وأمينة. إذا أخذنا في مفهوم الصدق، قول الحقيقة كاملة.

والذي لا ريب فيه، أن السيرة الكاملة للشهيد ظلّت دفينة عمراً طويلاً. لا يقرأ القارئون منها غير ما يتصل بسطحها. ولا ينفذون إلى مكنونها وخبيئها. وما ذلك، فيما نحسب، إلا لأن نصوصها الأصليّة فقيرة جداً. أعني بذلك على نحو التعيين، تلك التي صدرت عمّن عرفوا صاحبها عن قُرب، واضطربوا معه بوجدانهم، فيما اضطرب هو فيه بالفعل. خصوصاً في السنة الأخيرة

---

١٩. نفسه: ٧/ ١٢.

من عمره. ومع ذلك فإن هذه النصوص لم تكترث إطلاقاً ببيان الأسباب الحقيقيّة لقتله. ولو أنها فعلت لكان من الممكن أن تُلقي ضوءاً مُنيراً على أعماله. ونُرجّح أن سبب عدم الاكتراث يرجع إلى أن أسباب قتله أخذت طابعاً تراكميّاً. يعسر على غير المُتتبّع الحصيف أن ينظمها في حلقات مُتماسكة. أو أنها كانت وقت حدوثها من الوضوح والشُّهرة، بحيث لم يجد أحد من الضروري أن يُبيّنها.

أمّا المصادر الرسميّة وشبه الرسميّة، فإنها كُتبت بلهجة تبريريّة، حافلة بالغمز واللمز لجانب الشهيد. ابتغاء تصوير قتلته الفاجعة جزاءً وفاقاً، وغضباً لِما ينبغي لسلطة مسلمة، أمينة على وظيفتها الشرعيّة أن تغضب له. إذن، فهي تعكس منطق السلطة. وليس في هذا ما يُفاجئنا.

فبين هذا وذاك ضاع ما ضاع من سيرة الشهيد الحافلة. ولم يبقَ منها إلا ما عرضناه فيما فات. نعم، وبقي أيضاً ثروة من المعلومات غير المباشرة. التي لا يكتشف الباحث علاقتها بصُلب الموضوع بسهولة. وهي موزّعة بين تقاطعات التاريخ الرسمي مع ما نعرفه من سيرة الشهيد. وبين نصوص فقهيّة. فضلاً عن نقولات شفويّة.

من التنويه بالفضل لأهله، أن نذكر في هذا، كاتب السيرة ذا العقل اللمّاح والبصيرة النافذة، محمد باقر الخوانساري (ت: ١٣١٣ هـ/ ١٨٨٥ م) في كتابه «روضات الجنّات في أحوال العلماء والسّادات». فهو الوحيد الذي سجّل أن من أعمال الشهيد ما هو أكثر بكثير ممّا نتوقّع أن نجده في سيرة فقيه بارز. مع أنه، بالتأكيد، لم يطّلع على المسار التاريخي الذي اضطرب فيه. ولا على طريقة تعاطيه مع ذلك المسار. ومن المعلوم أن فهم سيرة الشخصيّة، هو فرع ونتيجة للوقوف على تصوّرما لهذين العنصرين، أو لأحدهما على الأقلّ. بداهة إنه ما من سيرة تنبت في فراغ. ومع ذلك فإنه نجح في أن يُسجّل لنا ملاحظتين أساسيتين. لم يسبقه إلى تسجيلهما أحد.

تتصل الأُولى منهما بموقع الشهيد الفكري الرّيادي، من بين فقهاء روّادٍ آخرين [٢٠]. على أنه لم يأخذ في التقويم هنا أبرز نقطة رياديّة، ساهم بها الشهيد في تطوّر الفقه الإمامي. وعبره في جُملة تطوّرات نالت البُنى الثقافيّة والسياسيّة. أعني ما عُرف فيما بعد بـ«ولاية الفقيه». التي آلت فيما بعد إلى أن غدت عماد الفكر السياسي الشيعي الإمامي. بل رأيناه يصدر في كلامه عن منظور نقدي عام، تناول مُجمل أعماله الفقهيّة. ولا ضير في ذلك. ولا هو بالنقص المُخلّ إخلالاً كبيراً.

٢٠. «روضات الجنات»: ٧/ ٤ – ٥.

إذ لاشك أن تلك النقلة الرّياديّة كانت ثمرة يانعة من ثمرات ذلك العقل المُبدع نفسه. الذي يُمكن اكتشاف مواطن الإبداع فيه بالنظر إليه من أكثر من زاوية.

أمّا الملاحظة الثانية، فإننا نجدها في الإشارة إلى النفوذ غير العادي الذي تمتّع به الشهيد في منطقة عمله في وطنه. نفوذ يتجاوز بكثير مانتوقّع أن نجده عند فقيه مثله، في الظروف التي عمل فيها[٢١].

والحقيقة أنني انطلقت، قبل عقدين تقريباً، من هاتين الملاحظتين، بدراسات عدّة عن الشهيد. رميت منها إلى تركيب سيرة له أقرب ما تكون إلى الصحّة. أعني أنها تُفسّر كل الإشكاليّات التي يطرحها الجزء البارز منها. وما أزال حتى الآن أكتشف جديداً. يُصحّح أو يجلو بعض النقاط التفصيليّة. ولكنه دائماً يؤكّد صدق الملاحظتين عموماً. وإن كان يُحدّدها بأكثر ممّا كان بوسع الخوانساري أن يفعل.

٢-السيرة الفكريّة العملانيّة

(١)

هانحن قد وضعنا ما نرى فيه الأساس الصحيح للدخول إلى السيرة المُعقّدة للشهيد. ابتغاء النفاذ منها إلى فترة النهضة. لِما ها هنا من علاقة صميمة بين الذات والموضوع، بين البطل وأعماله.

ومن البيّن للقارئ الحصيف أن كل ما وصفناه فيما فات من فصول الكتاب، إنما يرمي إلى الوصول إلى هذه النقطة. مُزوّدين برؤية واضحة لأساسها في النفوس، كما في الشروط الموضوعيّة. ممّا ركّزناه في أول هذا الفصل. ثم ثنّينا عليه بسيرة أوّليّة لبطلها. وصفناها أيضاً بـ «الساذجة». لأنها لم تُلامس إلا ما هو ظاهر ومنصوص عليه. ممّا نرى أنه قاصر عن تفسير المُشكلات المعقّدة التي تطرحها السيرة. وذلك ابتغاء التعريف به لمن لا يعرفه. ممّا نرجو أن يكون مدخلاً ووسيلة إلى الجانب الخفي منها.

نعني بـ «السيرة المُعقّدة للشهيد» الجانب السياسي منها على نحو التخصيص. على أن الحدود تتداخل بين هذا الجانب وبين الآخرَ الفكري. سواء على مستوى عمارة السيرة، أم على المستوى

---

٢١. نفسه: ٧/ ١١.

العملاني السياسي وما مكث منه في الناس. وأنجب في السياسة والثقافة والمؤسسات ... الخ. وذلك جانب بقي منه في الناس ما بقي. ممّا منح وطنه مكانته الخاصّة. ونسعى للوصول إليه إن شاء الله. الأمر الذي جعله، أعني ذلك الجانب السياسي، مُستحقّاً للتخصيص. ومُستحقّاً للفرز عن باقي عناصر سيرته.

لكننا، قبل الخوض في هذا الجانب من سيرة الرجل وأعماله، نجد لزاماً علينا أن نُنبّه على أمر. هو أن النصوص الصريحة المباشرة عليه نادرة جداً. إن لم تكن معدومة. إننا في هذا المطلب أمام شَتات من المعلومات. يعسر جداً على غير الخبير العارف بالفترة وبتصاريفها، وخصوصاً بنصوصها من مختلف الألوان، أن يرى الأمر الجامع بينها. ثم أن يُركّب منها تصورّاً متكاملاً للأحداث ولموضع الشهيد وأعماله منها. وكأن ما بين أيدينا من شَتات، بقايا صورة عدا عليها الزمان، فمزّقها كل ممزّق. وها نحن نعمل على إعادتها إلى ما كانت عليه من قبل. عسى أن نفوز في نهاية السعي بتصورّ أقرب ما يكون إلى الحقيقة. نقول هذا، كي لا يأخذ القارئ فاتحة كلامنا وعداً مُلزماً بتقديم تصورّ تام. يعتمد على نصوص صريحة مُباشرة فيها الاسم والحدث والزمان والمكان.

ثم إن هذا التنبيه يُفسرّ لماذا خفي ذلك الجانب على غيرنا، في كل ما كُتب على الشهيد. باسثناء تلك الإشارة البعيدة، لدى كاتب السيرة المُبدع محمد باقر الخوانساري. التي أشرنا إليها وإلى فضلها على بحوثنا قبل قليل.

(٢)

أول ما نبتغيه فيما يلي من هذا الفصل، هو أن نبني تصورّاً للحوافز، التي نظن ظنّاً أنها الظهير المُناسب لِما سنصفه في الخطوة التالية. من أعمال الشهيد ذات البُعد السياسي. سواء منها ماكان على مُستوى الفكر، أم على مُستوى العمل.

نقول: «نظن ظنّاً» لأننا نتعامل في هذا مع حوافز. وهي من سريرة صاحبها. ومهما تكن العلاقة بين الظهير السياسي أو الاجتماعي وبين أعمال الشهيد واضحة جليّة، فإنها في النهاية تمرّ بمكان القرار من نفس الرجل. وهذا نهج لا يصحّ أن نصف نتائجه بأكثر من أنها ظنّيّة. مع أنها تنسجم انسجاماً تامّاً مع سياق تاريخي ثابت ومؤكّد.

فمن المعلوم إجمالاً، أن التشيّع كان السمة الغالبة على الشام كلّه، سكانياً وثقافياً. إلى أن نزل البلاء الصليبي، فأصابه، أعني التشيّع، في مقاتله كلها. خصوصاً في مراكزه السكانيّة والحضاريّة والثقافيّة الرئيسة: حلب وطرابلس وصور وطبريّة. فضلاً عن مراكز أُخرى أقلّ شاناً تفوق العدّ.

ثم كان من أمر الجماعات العسكريّة، التي انصبّت من الأطراف، قادمة على موجة الدفاع عن «دار الإسلام»، أن تابعت ما بدأه الصليبيّون. ممّا بسطنا الكلام عليه فيما فات. وهذا يُلخّص بأوجز بيان، المسار التاريخي الانقلابي، الذي أُرغمت المنطقة على سلوكه، لمدّة تزيد على القرنين حتى الآن. وكانت فاتحته سقوط طبريّة عام ٤٩٤ هـ/ ١١٠٠ م.

من هذا الظهير ننفذ إلى التجلّي الأخير للسياسة التي التزمتها تلك الجماعات العسكريّة تجاه التشيّع في الشام خصوصاً. وكان له، فيما نظن، صفة الحافز الرئيس لأعمال الشهيد في مختلف الميادين.

(٣)

فقبل ولادته بسنوات قليلة، أتى المماليك على آخر الجيوب الصليبيّة في المنطقة الشاميّة (٦٩٢ هـ/ ١٢٩٢ م). وما إن استتبّ لهم أمر البلاد والعباد، حتى انقلبوا على الشيعة في جبل لبنان. فجرّدوا عليهم الحملات. وكانت أُولاها سنة ٦٩٢هـ. وقد فشلت فشلاً ذريعاً. بسبب وعورة مسالك الجبل، والمقاومة الصلبة من أهليه. لكن الحملات، عسكريّة وسياسيّة، ظلت تتوالى حتى الشهر الأخير من العام ٧٠٤ هـ/ ١٣٠٤ م. حيث، في هذا التاريخ، حشدت السلطة المملوكيّة قوّة عسكريّة كبيرة، قدّرت بخمسين ألف مُقاتل. من العسكر المُرابط في دمشق، ومن التابعين لمُختلف الأُمراء الإقطاعيين المحلّيين. فضلاً عن متطوّعين تجمّعوا من مُختلف الأنحاء قصيّة ودانية. ممّا نجد أخباره في «البداية والنهاية» لابن كثير، و «تاريخ ابن قاضي شهُبة» و «نهاية الأرب» للنويري، و «عيون التواريخ» للكتبي. حوادث السنتين المذكورتين وما بينهما. وكل ما في هذه المصادر كُتب من وجهة نظر السّلطة، كما هو متُوقّع. لكنني، بعد البحث والمقارنة والتدقيق، وجدتُ أن أغناها بالتفصيلات، هو ما في «تاريخ بيروت» لابن يحيى، وفي «العقود الدّريّة» لابن عبد الهادي. ذلك أن أول الرجلين اتصل بالموضوع اتصالاً مُباشراً. عن طريق عائلته، بنو بُحتُر، أُمراء غرب

بيروت. الذين شاركوا مُشاركة فعّالة في الحملات، خصوصاً الأخيرة. أمّا الثاني، فإنه أثبت رسالة شيخه أحمد بن تيميّة إلى السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣-٧٠٨ هـ/ ١٢٩٣-١٣٠٨م) جواباً على رسالة السلطان الناصر إليه. وبذلك حفظ لنا، دون أن يقصد، وثيقة فريدة عن الحملة الأخيرة. التي شارك فيها ابن تيميّة شخصياً، مُحرّضاً ومُقاتلاً. إلى نُتَف نادرة جداً عن تاريخ الشيعة الضائع في كسروان والمتن. ولا شكّ أن إثبات ابن عبد الهادي لتلك الرسالة الجواب، يُشير إلى السّجال الكبير الذي أثاره وجود فقيه كبير، على رأس جيش مُسلم، يجوس أرضاً إسلاميّة، فيُحرق الزروع ويقطع الأشجار، ويخنق بالدخان النساء والأطفال اللاجئين إلى المغاور والكهوف، هرباً من القتل. ممّا لايحلّ إجماعاً حتى في دار الحرب.

ممّا لا شك فيه أن نكبة شيعة كسروان قد تركت صدىً حزيناً لدى إخوانهم في جبل عامل. الذي كان قد تحرّر حديثاً من الاحتلال. ثم لا ريب أن طعمها المُرّ كان ما يزال في الأفواه يوم وُلد الشهيد، وفي فترة شبابه. خصوصاً وأن قسماً لا يُستهان به ممن هُجّروا قد لجأ إلى جزّين [٢٢]. مسقط رأس الشهيد.

دخلت نكبة كسروان التاريخ تحت اسم «فتوح كسروان» [٢٣]. والاسم يُشير إلى الحجم الكبير الذي أعطته السلطة لفعلتها. بوصفها إنجازاً بحجم فتح. فضلاً عمّا في معنى الفتح من تبرير ضمني. والاسم يُشير أيضاً من طرف إلى استمرار التحريض على أهله المنكوبين. ذلك التحريض الذي نقرؤه قراءة أوفى وأبين في رسالة ابن تيميّة إلى السلطان. وأثبتها تلميذه ابن عبد الهادي في «العقود الدريّة» [٢٤]. ولكنه دخل أيضاً من باب الجغرافيا. حيث الاسم نفسه «فتوح كسروان» أو «الفتوح»، ما يزال علماً على منطقة معروفة منه، و لنلاحظ هنا أن في هذه التسمية ما يُحرّك الاستغراب. فالمألوف والجاري أن اسم الوقائع يُنتزَع من اسم المكان الذي جرت فيه. أمّا هاهنا فإننا أمام وضع معكوس. ولم نقع على ما يصلح تفسيراً لهذه المُلاحظة.

---

٢٢. صالح بن يحيى: «تاريخ بيروت». ط. بيروت ١٩٩٠/ ٩٦.

٢٣. محمد بن أحمد بن عبد الهادي: «العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيميّة». ط. القاهرة ١٣٥٦ هـ/ ١٩٣٨ م/ ١٨٢ مثلاً.

٢٤. ١٨٢-٨٤.

نقول كل هذا لأنه يُصورّ الفعل، أعني الحدث الأساسي. ثم ما تلاه وصاحبه من تهويل وتبرير وتحريض. وليُساعدنا على تصورّ الرّجع عليه، عند مَن لا بد أنه ينالهم ضمناً، بمعنى أو بغيره. أعني كل الشيعة في المنطقة. ما دمنا نسعى إلى تصورّ الظهير المناسب لحركة الشهيد.

(٤)

والظاهر أن معالم الفترة التاريخيّة التي عاش فيها الشهيد. وأتى عمله الفكري والسياسي على قاعدتها. تتمثّل أمامنا اليوم في سلسلة من المتغيّرات السكانيّة. نالت الجبل والساحل اللبنانيين. كلها من تداعيات «فتوح كسروان».

فما أن أجلت السلطة مَن بقي من سكانه الأصليين، حتى سارعت إلى جلب أعداد كثيفة من التركمان وأنزلتهم فيه[٢٥]. ابتغاء ملء الفراغ. لكن أولئك التركمان الرُّعاة، المُعتادين على حياة السهوب، لم يُفلحوا في التكيّف مع الطبيعة الجبليّة القاسية لمسكنهم الجديد. وأخذوا يهجرونه هابطين باتجاه السواحل الدافئة. ليبدأ من هنا أيضاً تغيير سكاني أخَر.

من السهولة بمكان أن نربط بين هذه الحقيقة، وبين ما يذكره مؤرخون مُحدثون، من أن ظهور المسلمين من السُّنّة في مُدُن الساحل، يعود إلى الفترة المملوكيّة. لا سيّما منذ القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد. حيث غدوا ظاهرة سكانيّة بارزة في طرابلس وبيروت وصيدا[٢٦]. وهذا تغيير سكاني أوثق علاقة، بل هو ذو علاقة مباشرة، بما نعالجه.

المُتغيّرات السكانيّة، ابتداءً من «فتوح كسروان» إلى هبوط التركمان المجلوبين إلى السواحل، حمل إلى المسلمين الشيعة ما رأوا فيه، بحق، تهديداً جديّاً لوجودهم التاريخي. والضغط السكاني على المُدُن الساحليّة، الذي كان مدعوماً من السلطة المملوكيّة، اتخذ شكل ضغط معنوي «وأخذوا مذ ذاك يختفون من أكثر مُدُن الساحل اللبناني. لتحلّ محلهم جاليات سُنّيّة جاء بها المماليك»[٢٧].

---

٢٥. ابن كثير: «البداية والنهاية». ط. القاهرة لات. / حوادث السنة ٧٠٥.

٢٦. كمال صليبا: «تاريخ لبنان الحديث». ط. بيروت ١٩٧٩ م/ ١٤. وجيه كوثراني: «الإتجاهات الإجتماعية –السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي» ط. بيروت ١٩٨٧ / ٣٢.

٢٧. «تاريخ لبنان الحديث» / ١٥. والمعنى نفسه في: عصام شبارو: «تاريخ بيروت». ط. بيروت ١٩٨٧م/ ١١٤.

في هذا الإطار يجب أن نضع نصاً تكرّر وروده في مصدرين شيعيين هما «روضات الجنّات» و «لؤلؤة البحرين» ٢٨ . تحدّث فيه المؤلّفان عن «أهل السواحل من المُتسنّنين» . وهو نصّ هام جداً . من حيث أنه يُشير إلى وجود مُعتدّ به من المسلمين الشيعة في السواحل ، تأثّر بالاكتساح السكاني الجديد . من وُجهة نظر نقدية ، فإنه لا ريب إطلاقاً في براءة النص . من حيث إنه لا يأتي في سياق ممّا يُغري بالوضع . كأن يأتي في سياق حديث عن حجم الوجود الشيعي في المنطقة مثلاً ، أو أي سياق مُشابه ، يمكن أن يوظَّف فيه . ولا شك أن الخوانساري الإيراني ، صاحب «روضات الجنّات» والبحراني ، الذي يدلّ اسمه على موطنه ، صاحب «لؤلؤة البحرين» ، كانا خاليي الذهن تماماً عن مُعالجة أي موضوع كهذا . ومن هنا نعتقد أنهما أخذا النصّ عن مصدر آخَر أو أكثر ، خفي علينا أو ضاع نهائياً . لكن هذه الملاحظة لا تنتقص من قيمةالنص ، لِما يوحي به التعليل النقدي . ثم لا شك أن المسلمين الشيعة كانوا مُحقّين تماماً في تخوّفهم . خاصةً وأنه يجب أن لا يكونوا قد نسوا بعد كيف بدأت تلك التغيّرات بنكبتهم في كسروان .

نضع أيضاً في الإطار نفسه نصّاً آخَر ، ورد لدى ابن يحيى ، تحدّث فيه عن حركة للمسلمين الشيعة في بيروت ، وأنهم «أظهروا القيام بالسنّة» ٢٩ . وهو نصّ نقبله . مع ضرورة إجراء تعديل أساسي عليه . يُمليه علينا فهمنا لحوافز وطبيعة هذه الحركة . بعد أن وضعناها في إطارها الصحيح . وفهمنُا أيضاً لمنظور ابن يحيى للموضوع برمّته . فحركة المسلمين الشيعة ، التي رآها مذهبيّة ، نراها نحن سياسيّة . مُوجّهة ضد السلطة المملوكيّة . التي قادت منذ البداية كل ما رأى فيه أولئك بحق سبباً كافياً لخوف على الوجود مُقيم . إبتداءً من اجتياح كسروان ، فجَلْب التركمان إليه ، ثم نزولهم إلى السواحل ، فتداعيات ذلك كلّه . وقد عرفناه . وعلى كل حال ، فإن لابن يحيى عُذره الواضح في عدم إدراك ما وراء الحدث ، لأسباب غير خفيّة .

ذلك هو ، فيما نرى ، الظهير الذي تعامل معه الشهيد ، بعد أوبته من رحلته العلميّة الواسعة . ونظن أنه نفسه الحافز الذي ابتعثه إلى الفكر وإلى العمل ، وفق منهج مُتكامل . سيكون وصفه وبيان عناصره محطّ اهتمامنا فيما بقي من هذا الفصل .

---

٢٨ . ٧ / ١٣ و ١٤٦ على التوالي .

٢٩ . «تاريخ بيروت» / ١٩٥ .

حقاً أن جبل عامل لم يُصب إصابة مباشرة، في ذلك المسلسل ذي الحلقات الآخذ بعضها برقاب بعض. لكننا رأينا أن الشيعة كانوا الخاسر الأكبر، بل الوحيد، في كل ما جرى. وغني عن البيان، أن أعضاء الجسد تتداعى. خصوصاً وأننا قد عرفنا أن قسماً ممّن هجّرتهم النكبة، أعني نكبة كسروان، قد لجأ إلى جزين بلد الشهيد. ثم أن القارئ لرسالة ابن تيميّة إلى السلطان، الحافلة بصنوف التضليل والبهتان، ليروعه ما فيها من إغراء صريح بسفك المزيد والمزيد من دم الشيعة. مع تحريض خاص على أهل جزين و جبل عامل. «هم وسائر أهل هذا المذهب الملعون. مثل أهل جزين وما حواليها، وجبل عامل ونواحيه»[٣٠] ليعود في خاتمتها إلى تأكيد التحريض. مع إضافة مناطق أُخرى. «تمام هذا الفتح [يعني اجتياح كسروان] تقدّم مراسم السلطان، بحسم مادّة أهل الفساد [...] وهي قُرى متعدّدة، بأعمال دمشق وصفد وحمص وحلب»[٣١]. ولقد كان جبل عامل يومذاك، وإلى أمد طويل من بعد، من أعمال صفد.

فنحن نرى من مجموع هاتيك الوقائع الثابتة والنصوص الواضحة والتحليلات المقبولة، أنه كان هناك بالفعل في وطن الشهيد بواعث كافية إلى عمل ما. تجعل مَن يرون في أنفسهم هدفاً فعليّاً أو مُحتملاً، يبحثون عن مخرج يُنجيهم من شر عظيم. وما مثل هذه الأزمة محكّاً لمعادن الأُمم والرجال. وما مثلها ظرفاً مؤاتياً لبروز الأبطال.

(٥)

ليس في أعمال الشهيد الأُولى ما يدلّ على أنه كان يرمي إلى أمر كبير. هوذا أحد أبناء جزين يعود إلى قريته الصغيرة فقيهاً ذا شأن. وهي هي القرية التي فازت حتى الآن بقصب السبّق في هذا من بين قُرى جبل عامل. لكن هذا القادم يأتيها بمجد غير مسبوق. وهو الذي لم يخرج من الحلّة إلا بعد أن غدا من شيوخها وأساتيذها وصاحب حلقة. وذلك بالنسبة لقومه العطشى خصب وريّ. وهم أُولاء الذين عرفناهم مُستفزّين إلى كل ما يعلو بذاتيّتهم المأزومة إلى المعارج التي تهفو إليها أنفسهم. بعد عهود الضيّم والهضم والاستلاب والرّيادة البطيئة. وها قد جاء الآن الآهل لأن يقودهم على الصراط المستقيم.

٣٠. «العقود الدريّة» / ١٨٥.

٣١. نفسه / ١٩٢.

من هنا، فيما نُخمّن، انطلق الشهيد. من مكانته العلميّة العالية، التي تتوفّر الأدلّة والملاحظات على أنها أكسبته بسرعة موقعاً عالياً. في بلده أولاً، كما تقتضي طبائع الأشياء. ثم، بالتأكيد، في جبل عامل. وعبره في عالَم التشيّع. الأمر الذي جعله قُطب الرّحى، بين قوم كانوا بالفعل في مسيس الحاجة إلى قطب يُدبّر أمرهم. ويلُمّ ما تشعّث منه في القرون الثلاثة الماضيات. ويُحرّرهم من أزمتهم التي طال استحكامها.

أول ما يلاحظه المتتبّع، من آثار أعمال الشهيد، ذلك الحشد غير المسبوق من الفقهاء الجُدُد، الموصوف كلّ منهم، في كُتُب التراجم والسيّر والطبقات، بأنه «من تلاميذ الشهيد» أو «ممّن يروي عن الشهيد» [٣٢]. والعبارتان عموماً بمعنى. وفيما تُشير إليه المصادر التي أخذنا عنها هذه المعلومة، ما إذا صنّفناه ووضعناه في سياق، يجب أن يكون قد غدا بيّناً عند القارئ، لوصل بنا إلى نتائج تُغني تصوّراتنا عن تلك الأيام الانقلابيّة.

وأول ما ينبغي علينا أن نلحظه من تلك النتائج الحشد نفسه. وإن قارئاً وعى قلبه ما قد غادرناه من سيرِ أولئك الروّاد السبعة، ورأى أنهم جِماع مَن خرج من جبل عامل كلّه في قرنين أو حواليها، ، ثم قارنه بالعدد الجمّ الذي نجم فيما لا يزيد على العقود الثلاثة، لن يكون من العسير عليه أن يتصوّر حجم العمل الذي تمّ على يد الشهيد وبفضله. بوصفه أول فقيه عاملي من حجمه، دفع التوق الذي كان كامناً فيه إلى الفعل. أي أن الفضل في هذا الإنجاز يعود أيضاً إلى المحلّ القابل، وهذا واضح، فما من مُشعل ناراً في رماد بارد.

ثم إننا نُلاحظ أيضاً، أن أولئك التلاميذ ينتمون بأعرقهم إلى مُختلف الأقطار. فمنهم، وهم الأكثر، عامليّون. مثل: شمس الدين محمد الضحّاك [٣٣] ومحمود المُشتهر بابن أمير الحاج [٣٤] وعلي ابن بشارة الشقراوي [٣٥] والحسين بن علي العاملي [٣٦] وعبد الصمد الجُباعي [٣٧] وعلي بن محمد بن

---

٣٢. مثلاً: «أمل الآمل»: ١/ ١٣٨، ١٨٤. و: ٢/ ٢١، ٥٥، ٦٣، ٦٧، ١٥٦، ١٧٦، ١٨٦، ١٩٦، ٢٠٦، ٢٤٧، ٢٧٩، ٣٠٩، ٣٢٥. و«رياض العلماء»: ١/ ٢٣٤. ٣/ ٣٧٤. ٥/ ٢٤٤. و «روضات الجنّات»: ٧/ ٧. و «بحار الأنوار»: ١٠٧/ ٢٩، ٢٠٩.

٣٣. «بحار الأنوار»: ١٠٧/ ٢٠٩.

٣٤. «أمل الآمل»: ١/ ١٨٤.

٣٥. «رياض العلماء»: ١/ ٢٣٤.

٣٦. «تكملة أمل الآمل»/ ١٨٧.

٣٧. « أعيان الشيعة»: ٤/ ٣٤.

يونس البيّاضي[٣٨] وحسن الفتوني البيّاضي[٣٩] وغيرهم. وما من ريب عندنا أنه كان هناك آخرون ضاع ذكرهم. لأننا لا نأخذ في هذا عن إحصاء مقصود. ثم أن الحر العاملي يقول: «قد سمعت من بعض مشايخنا أنه اجتمع في جنازة في قرية من قُرى جبل عامل سبعون مُجتهداً، في عصر الشهيد أو ما قاربه»[٤٠]. ومهما يكن في القول من مُبالغة، في العدد أو الوصف، فإنه يدلُّ دلالة مؤكّدة على حجم النقلة التي تمّت على يد الشهيد. وإننا نُلاحظ من أسماء المنسوبين، ممّن أحصيناهم أعلاه، أنهم جاؤوا من مُختلف أنحاء الجبل. ممّا يدلّ دلالة مؤكّدة لا لَبس فيها، على سعة انتشار أولئك الفقهاء، ومن ثمّ تأثيرهم.

ثم إن منهم مَن ينتمون إلى كرك نوح: الحسن بن العشرة[٤١] وحسين بن هلال الكركي[٤٢] ومحمد بن عبد العالي الكركي[٤٣]. وإلى كسروان، أحمد بن إبراهيم الكسرواني[٤٤]. وإلى حلب، أحمد ابن القاسم بن زُهرة[٤٥] ومحمد بن محمد بن زُهرة[٤٦]. وإلى العراق، المقداد بن عبد الله السيّوري[٤٧] وعبد العالي بن نُجدة[٤٨] ورضي الدين المزيدي[٤٩].

فأنت ترى من هذا الحشد من أسماء القادمين من مُختلف الأقطار والبلدان، على بُعد شقّة بعضها، أن مدرسة، بالمعنى الأكاديمي للكلمة، قد نشأت من حول الشهيد. والحقيقة أننا نكاد نُشاهد، بما هو قريب من رؤية العين، جبل عامل وهو ينهض. وما أولئك الرجال الذين تحلّقوا

---

٣٨. «مجلّة معهد المخطوطات» السنة الأُولى، العدد الثالث/ ٤٥.
٣٩. «أمل الآمل»: ١/ ٦٦.
٤٠. نفسه: ١/ ١٥.
٤١. «أمل الآمل»: ٢/ ٦٧.
٤٢. «رياض العلماء»: ٣/ ٣٧٤.
٤٣. «روضات الجنات»: ٧/ ٧.
٤٤. «أعيان الشيعة»: ٢/ ٢٨٣.
٤٥. «أمل الآمل»: ٢/ ١٢١.
٤٦. «رياض العلماء»: ٣/ ٣٧٤.
٤٧. «أمل الآمل»: ٢/ ٣٢٥.
٤٨. نفسه: ٢/ ١٥٦.
٤٩. أيضاً.

حول قُطب الأوان، إلا الطليعة التي ستنُبت أمثالها، فيما يُشبه التفاعل المُتسلسل. وستمتدّ في الزمان، وستنداح في المكان، مؤسّسة لواحدة من أعظم ملاحم الفكر، وأشدّها إثارةً للعجب.

وإذا استحسنّا أن نخرج بمغزى من هذا الذي نصفه الآن عن إطاره الجغرافي الآني، إلى ما سيؤول إليه ويُرهص له، لقُلنا: الشام، أو بالأحرى التشيّع الشامي. وليس جبل عامل حسبُ، قد بدأ بهذه الخطوة سبيله إلى ترميم ما قد دمّرته كوارث الأيام الخالية. التي أصابت منه أكثر من مقتل. ومن أمارات ذلك أننا وجدنا بين تلاميذ الشهيد اثنين من حلب. تلك المنارة الفريدة، التي شعّت على الشام زهاء القرنين من الزمان. وهما من بني زُهرة. تلك العائلة المُعرقة، بأكثر من معنى من معاني الإعراق. وكان من فضلها أن منحت المدينة المكانة التي دخلت بها التاريخ مرّة. وها هما الآن، بعد أن صار مجد مدينتهم ومجد بيتهم جزءاً من الماضي الذي لن يعود، يُسارعان إلى الانضمام إلى الركّب الآخذ بالتجمّع حول الشهيد.

ونحن نفتقد في هذا أبناء طرابلس. رصيفة حلب أيام عزّها. وما ذاك إلا لأن طرابلس لم تعُد هناك. ولم يكن قد بقي منها إلا أطلال. بعد أن دمّرها مُحرّروها تدميراً. وكانت من قبل إمارة صليبيّة. أمّا أهلوها فكانوا قد هُجّروا يوم سقوطها. ولجؤوا إلى جبل لبنان. ومُذ ذاك امتلأ الجبل بالسكان. وهم هم أولئك الذين أجلاهم العسكر المملوكي فيما سُمّي «فتوح كسروان»[٥٠].

(٦)

الظاهر أن كل أعمال الشهيد، في النطاق الذي وصفناه أعلاه، كانت بمثابة الإعداد والإرهاص لِما يتلو. ويلوح لي أن الخطوة التالية والطبيعيّة كانت إعمال ذلك العدد غير المسبوق من الفقهاء الجُدد في جبل عامل؛ إعمالاً يتناسب والحوافز والمُهيّئات التي ركّبناها في أوائل هذا الفصل. نحن منذ الآن سندخل الجانب غير المنظور من سيرته وأعماله. بمعنى غير المنصوص عليه نصّاً مباشراً وصريحاً. كل ما لدينا عنه نُتف متفرّقة. لا تُفصح عن مكنونها إلا بعد تركيبها بعضها إلى بعض. وأيضاً بعد وضعها في مثل الإطار العام الذي فرغنا منه قبل قليل. وهو هو ذلك الجانب الذي قلنا فيه، أول هذا الفصل، «السيرة المُعقّدة للشهيد». للسبب الذي ذكرناه الآن ومن قبل. ثم لأنه بنفسه يحمل أكثر من وجه، كما سنرى بعد قليل.

٥٠. للتفصيل والإسناد: كتابنا «التأسيس لتاريخ الشيعة ...» / الفصل الخاص بطرابلس.

يتقاطع في هذا الجانب شأن فكري وشأن عملاني. والحقيقة أنني وقفت طويلاً عند التساؤل التالي: بأيّ الشأنين أبدأ؟ من وجهة نظر منهجيّة، الفكري سابق رتبةً على العملاني. مادام هذا تنفيذاً وإعمالاً لذاك. لكنني خشيت أن يُفهم من ذلك، أنني بهذا الترتيب أؤسّس تاريخاً، وإن تقريبيّاً، لنضج الفكرة عند الشهيد. وهو ما لم أتحقّق منه حتى الآن. إذن، فلنُسجّل هذا التحفّظ. ولنشرع ببيان الشأن الفكري.

نعني بذلك، الفكرة التي دخلت الثقافة الشيعيّة الإماميّة فيما بعد، تحت اسم «ولاية الفقيه». فمنحتها، لأول مرّة منذ انتهاء فترة الحضور العلني للأئمة، مفهومها الخاص للشرعيّة، وآليّتها الخاصّة لإنتاج السلطة. وبذلك حرّكت البُنية الشيعيّة الضخمة والواسعة الانتشار إلى موقع سياسي، وزوّدتها برؤية. بعد أن كانت قد خمدت تماماً، على أثر غيبة آخر الأئمّة. أي لمُدّة خمسة قرون على نحو التقريب. إنها التغيير الصميمي الأكثر أهميّة في البُنية الثقافيّة لقوم وجدوا أنفسهم دائماً خارج التركيبة السياسيّة الفاعلة. بسبب اختلاف بُنيتهم الثقافية، واستعصائها على مختلف أشكال التوفيق، التي تمرّست بها المذاهب الأخرى. وها قد جاء الآن مَن حرّك هذه البُنية إلى موقع سياسي فاعل. مُعتمداً المضمون المعنوي للبُنية نفسها.

وغني عن البيان، أن تحريك تلك البُنية ما كان له أن يتمّ إلا من خلال البُنية نفسها. هنا تجلّت عبقريّة الشهيد العلميّة والسياسيّة. حين خرج على قومه بما مُنح فيما بعد اسم «ولاية الفقيه». تلك التي غدت مذ ذاك أساس الفكر السياسي الشيعي الإمامي وشعاره.

من الضروري جداً أن نُبيّن هنا، أن قولنا: «خرج على قومه ...» لا يعني أنه اجترح تلك الفكرة من عند نفسه اجتراحاً. ولإيضاح ذلك علينا أن نُحوّل الكلام نحو التعريف بوظيفة الفقيه المجتهد. أعني استنباط الأحكام من أدلّتها التفصيليّة استنباطاً. وليس اجتراحها من عند نفسه اجتراحاً. نحن نقول، إن الاستنباط هو من مصادر التشريع، أي من القرآن والسنّة والإجماع والعقل. هذا كلام صحيح دون ريب. لكنه يكتم حقيقة أساسيّة أيضاً. إنه يتناول مصادر استنباط الأحكام. لكنه لا يُعنى إطلاقاً بآليّة هذا الاستنباط، أي آليّة إعمال تلك المصادر. التي تبدأ من نقطة طرح المُشكلة، موضوع الحكم. وهذه لا يجب أن تكون بالضرورة في مصادر الاستنباط. بل قد تكون في الظروف الاجتماعيّة أو السياسيّة التي يمرّ بها الناس الذين هم موضع عناية الفقيه وهو يُقنّن. والإبداع هو في المُزاوجة الناجحة بين الواقع ومُقتضياته من جهة، وبين مصدر أو

مصادر الاستنباط من الجهة الأُخرى. إذ ذاك يصل الفقه والفقيه إلى أوج حضورهما. فمن هنا نفهم أن النصوص التي تعامل معها الشهيد، واستنبط منها ما استنبطه من سُلطة ما للفقيه، كانت ماثلة أمام الجميع في مصادرها. لكن العنصر الناقص كان الحافز، أعني ما سمّيناه أعلاه آليّة الاستنباط. وتلك حالة حضور لا يُلقّاها إلا ذو حظ عظيم.

أمر آخرَ لابدّ من بيانه. هو أننا لا نجد فيما بين أيدينا من كُتب الشهيد معالجة نظريّة للموضوع. على نحو مايُعالج كبار الفقهاء أُصولهم النظريّة. قبل أن يخرجوا بها على الناس بشكل فتاوى. وخصوصاً على نحو ما فعل أحمد بن مهدي النّراقي (١١٨٥-١٢٤٤ هـ/ ١٧٣١-١٨٢٥ م) في فصل برأسه من كتابه «عوائد الأيام». وما ندري سبب ذلك. ولعلّه، بل لابد، أنه وضعها بمستوى أو بغيره، ولم تصل إلينا. خصوصاً وأن التأسيس للفكرة كان قد قطع شوطاً بعيداً لدى شيوخه في الحلّة [٥١].

نقول «لابدّ» لأنه خرج على الناس بمجموعة من الفتاوى، التي تُشكّل بمجموعها نظريّة. أو التي لا يمكن إلا أن تكون مبنيّة على نظريّة. وهذا واضح. لكن هناك أيضاً، وهذا في غاية الأهميّة، لغة فقهيّة جديدة. هي عنوان ما أناط الشهيد بالفقيه من مهام، وما منحه من صلاحيّات. على نحو لا سابقة له في الفقه الإمامي، بقدر ما بحثنا ونقّبنا. بل على نحو لاسابقة له في الفقه كلّه، بمُختلف مذاهبه ومدارسه خلال العصور. وسنُبيّن كلا المطلبين.

أمّا الفتاوى فيمكن تصيّدها من كتابه «اللّمعة الدمشقيّة» باب الزكاة [٥٢]، باب الخُمس [٥٣]، باب الجهاد [٥٤]، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر [٥٥]، باب القضاء [٥٦]، باب الحَجر [٥٧]، باب النكاح [٥٨]،

---

٥١. راجع مقالتنا «عالم الدين الإيراني ودوره في مجتمعه» في فصليّة «شؤون الأوسط» ربيع ٢٠٠٢.

٥٢. هذا الكتاب ليس مطبوعاً طبعة مُستقلّة، وإنما دائماً مع شرحه للشهيد الثاني «الروضة البهيّة في شرح اللّمعة الدمشقيّة»: ١ / ١٣١. ومن الواضح أن هذه الملاحظة تخص أيضا الهوامش التالية.

٥٣. ١ / ١٣٧.

٥٤. ١ / ٢٢٠-٢١.

٥٥. ١ / ٢٢٥.

٥٦. ١ / ٢٣٦.

٥٧. ١ / ٣٦١.

٥٨. ٢ / ٧١ - ٧٢.

باب الحدود[٥٩] . ومن المُفيد جداً أن نُقارن ما في هذه الأبواب بمثيلاتها عند فقهاء سابقين ومُعاصرين . مثل الشيخ الطوسي (ت : ٤٦٠ هـ/ ١٠٦٧ م) في كتابه «النهاية في مُجرّد الفقه والفتاوى» . ثم لدى المُحقّق الحلي (ت : ٦٧٦ هـ/ ١٢٧٧ م) في كتابه «شرائع الإسلام» . هذه المقارنة ستساعدنا ولا ريب على تصورّ الموقع الذي دفع إليه الشهيد الفقيه الشيعي . بحيث رأينا فيه موقعاً سياسياً .

وأمّا ما قلنا فيه «لغة فقهيّة جديدة» ، فهو وصف الفقيه الجامع لشرائط الفتوى بـ«**نائب الإمام**» . وهو وصف في غاية البراعة . من حيث إنه يربط بين سلطة الإمام وسلطة الفقيه على نحو ما يكون بين الأصل وفرعه . وهذا يؤيّد ما ذهبنا إليه قبل قليل ، من ضرورة وجود مُعالجة نظريّة للموضوع عنده ، لم تُحررّ ، أو لم تصل إلينا .

الفكرة يمكن تلخيصها بالشكل التالي :

إن كل فقيه اجتمعت فيه أوصاف معلومة هو نائب عام عن الإمام . مع التنبيه على أن «عام» هنا هي وصف للنائب وليس للنيابة . والوصف آتٍ من أن التنصيص قد ورد في مصادره على أوصاف وشروط . كل مَن اجتمعت فيه اكتسب صلاحيّات قضائيّة وحسبيّة وتنفيذيّة ما . وذلك في مقابل «النائب الخاص» ، الذي كان أحد الأئمة ينصّ عليه بالذات . ابتغاء تقديم الرعاية والخدمات للمؤمنين في البلاد القصيّة . حيث يعسرُ الاتصال بالإمام شخصياً .

المُهمّ أن هذا التعبير جديد تماماً على اللغة الفقهيه الرسميّة . استنبطه الشهيد من المُلابسات والمواصفات المُحرّرة أعلاه . بل هو جديد أيضاً على لغة مصادر الاستنباط ، وخصوصاً لغة الحديث الشريف . وبالأخص على الأحاديث التسعة عشر ، التي كان أول مَن جمعها وحلّلها النراقي فيما بعد . في خطوة افتقدناها لدى الشهيد . كما أنها تطوير هام جداً لفكرته . والتعبير نجده في كتابي الشهيد «الذكرى» و «اللمعة الدمشقية» . مع الإشارة إلى أنه يورده في الأول منهما على سبيل التعريف بـ«السلطان العادل» [٦٠] . وهذا له مؤدّى ومعنى النصّ الصريح على البُعد السياسي الذي رمى إليه ، أعني من التعبير . أما في «اللمعة الدمشقية» ففي مقام بيان مَصْرِف الخُمس[٦١] ، أي

---

٥٩ . ٢ / ٣٧٠ .

٦٠ . «الذكرى» ط . إيران لا ت . (طبعة حجريّة) / ٢٣٠ .

٦١ . ١ / ١٣٧ .

الصلاحيّات الماليّة للفقيه . والكتابان من أواخر ما كتب . والأرجح أنهما آخره . لأنه أتمّ ما كتبه من «الذكرى » سنة ٧٨٤ هـ/ ١٣٨٢ م، أي قبل شهادته بسنتين . نصّ على ذلك في خاتمة الكتاب . أمّا «اللمعة الدمشقـيّة» فيُقال أنه كتبه في السجن . وهذه الملاحظة تسمح لنا بأن نؤرّخ، وإن على نحو التخمين والتقريب، لنُضج الفكرة عنده . وعلى أي حال، فإن الذي يبدو مؤكّداً أن هذه أول مرّة تدخل فيها هذه العبارة اللغة الفقهيّة . ومنها أخذت طريقها إلى عالَم الثقافة الشيعيّة الإماميّة إجمالاً .

(٧)

فيما يرجع إلى الشأن العمَلاني، فإنه يؤول إلى نشر الفكري وإعماله . وليس يتنافى قولنا هذا مع التحفّظ الذي سجّلناه فيما فات . لأن الفكري أوسع بكثير من التنظير لِما أصبح يُعرف فيما بعد باسم «ولاية الفقيه» . على أن من المقبول القول أن نشر هذه، بشكل فتاوى كما بيّنّا آنفاً، قد حدث في بعض المراحل على الأقلّ . المُهمّ أن ما بقي في أيدينا من هذا الشأن نُتف متفرّقة . علينا أن نُعيد جمع أجزائها . كيما يبدو لنا، لا أقول الصورة الكاملة، بل ملامح تكفي لأن نتصورّ المسار العمَلاني الصعب والطويل الذي سلكه الشهيد .

من ذلك ما تتوفّر الإشارة إليه في مختلف المصادر عن «أعوانه» و «رفيق له» [٦٢] . من المفهوم أن كلمة «أعوانه»، والضمير يعود إلى الشهيد، تُشير إلى، بل هي تعني، فريق عمل على شيء من التنظيم على الأقلّ . يتلقّى الأوامر من الشهيد . أمّا «رفيق له»، فهي تدلّ على معنى عام يصعب تحديده . لكن العسقلاني يقول إن اسم رفيقه هذا كان «عرفه»، ضرُبت عنقه في طرابلس، في الوقت نفسه الذي قُتل فيه الشهيد بدمشق . وأنه «كان على معُتقده» . ممّا يتركنا نظن أن السلطة كانت في وضع مُلاحقة جماعة أشبه بتنظيم . ثم لا ريب أن « أعوانه» تعني، فيما تعني، الفقهاء الجدُدُ من تلاميذ الشهيد . الذين انتشروا في مختلف البلدان والقرى، من جبل عامل وخارجه . وخصوصاً في المناطق الساحليّة، ومنها طرابلس . مُستندنا في هذا نص التوقيع الذي نشرته السلطة في دمشق . وسنقتبس موضع الحاجة منه ونُحلّله بعد قليل .

---

٦٢ . «لؤلؤة البحرين» / ١٤٦، وابن العماد الحنبلي، عبد الحي : «شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب» ط . بيروت (المكتب التجاري) لات : ٦ / ٢٩٤، و ابن حجر العسقلاني، أحمد بن يحيى : «إنباء الغمر بأنباء العمر» تحقيق حسن حبشي . ط . القاهرة ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م : ١ / ٢٠٠ .

لكن علينا الآن أن نقف على المغزى الرئيس لهذه الظاهرة الجديدة. فمن الغني عن البيان، لِمَن وعى جيداً ما قدّمنا به عن تطوّر الأحوال بجبل عامل، أن هذا الانتشار للفقهاء الحاملين لأفكار شيخهم، كان في ذلك الأوان أمراً جديداً على الناس. ولكنه مُناسب تماماً للتّوق العام. الذي وصفناه ووصفنا منازعه فيما فات. وليس من العسير على القارئ نفسه أن يتصوّر حجم النقلة التي أحدثها هذا التطوّر بكامل عناصره. وهو الذي غدا فيما بعد أمراً عادياً. يسهُل تصوّر ذلك ويعسُر التفصيل. لأن أمراً عميقاً كهذا يدخل في باب الإيقاع المكتوم للمجتمعات. لا تُمكن رؤيته وملاحظته إلا بمقارنة حال بحال. تماماً مثل النموّ. وإذا كنّا قد رأينا آنفاً في نشوء مدرسة حول الشهيد ما كان بمثابة الأساس للنهضة، فيُمكننا القول الآن، إن في هذا الانتشار أو النشر ما كان بمثابة الجدار الأول من بنائها. وليس عليها بعد هذا إلا أن تتكامل، سائرةً في الاتجاه نفسه.

من ذلك أيضاً إحياء العمل بخُمس المكاسب. وهو تشريع يمنح الفقيه الحق في جباية ثلاثة سهام من أصل ستة من خُمس فاضل نفقة كل مُكلّف. أي عُشر فاضل النفقة. وموضوع التشريع في أصل الشرع مغانم الحرب. والنصّ عليه في قوله تعالى: «واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خُمُسه وللرسول ولذي القُربى واليتامى والمساكين وابن السبيل»[٦٣]. ومنذ الإمام السابع، الإمام موسى الكاظم عليه السلام، على الأقلّ، بدأ العمل بخُمس المكاسب. والظاهر أن التدبير اعتُمد لتمويل التوجّهات الجديدة للأئمة، بعد انجلاء سنوات المحنة السوداء. التي بدأت بيوم «كربلاء» سنة ٦٣ هـ/ ٧٤٩ م. تلك التوجّهات التي بدأت معرفيّة. ثم تطوّرت عن طريق إضافة عناصر تنظيميّة واجتماعيّة. عملت على تنظيم ورعاية شؤون الجماعات الشيعيّة المُتكاثرة، في العراق وإيران و آسية الوسطى. لكنها بالتأكيد لم تشمل مَن كان منهم في المنطقة الشاميّة. والحق أن هذا التدبير كان، من الوجهة العمليّة، من أنجح تعميمات الأحكام وأعودها. خصوصاً وأن الحكم الأصلي كان قد غدا غير ذي موضوع، بعد انحسار حركة الفتوح. فإذا صحّ قولنا، إن الشهيد قد أحيا العمل بهذا التدبير، فهو يعني أن المنطقة الشاميّة التي لم يكن لها منه نصيب على عهد الأئمّة، كان من حظّها أن يكون لها قصب السبق لإحيائه من بعدهم، على يد الفقيه. الأمر الذي أصبح معمولاً به من بعد على أوسع نطاق.

٦٣. الأنفال/ ٤١.

علينا الآن أن نُبيّن كيف عرفنا أن الشهيد قد أحيا بالفعل العمل بخُمس المكاسب على يد الفقيه. وهو أمر لا نصّ مباشراً عليه، مثل كثير من عناصر سيرته الحافلة. وعليه نقول:

لقد أشرنا سابقاً، في سياق تلك الإلمامة ببداية «ولاية الفقيه» عنده، إلى انه حكم بلزوم دفع نصف الأخماس إلى «نائب الإمام». وبذلك ساق المسألة إلى طور جديد ثانٍ. ولكي نعرف حجم الخطوة التي تقدّم بها في هذا المجال، نقتبس عبارة تُبيّن لنا الموقف الفقهي العام من هذه المسألة قُبيل الشهيد. كتبها فقيه كبير. عُرِف بمنهجه العقلي الصلب. هو محمد ابن إدريس الحلّي (ت: ٥٩٨ هـ/ ١٢٠٠ م). قال: «**ثم لا نجد مُصنّفاً من أصحابنا بعد ذكره لهذه المسألة، إلا ويودع في كتابه ويُفتي ويقول، إن نصف الخُمس يُوصى به لصاحبه** [يعني الإمام] **أو يُحفظ لصاحبه، أو يودعه لصاحبه**»[٦٤]. يعني أن لا حق للفقيه إطلاقاً في التصرّف فيه. ثم إن الظاهر أن الشهيد ذهب بالأمر بعيداً. بحيث تحوّل على يده إلى نظام للجباية والإنفاق. يقول البحراني في (لؤلؤة البحرين) إنه كان فيما أُخذ على الشهيد، وأدّى إلى المحاكمة التي انتهت بقتله «**أنه كان عاملاً**». وهي عبارة ذات مغزى عميق. جاءت بكلمة من خارج الكلام الدائر على الألسن «**عامل**». هي ولا ريب قادمة من اللغة الديوانيّة الرسميّة. ممّا يُشير إلى المصدر الذي أتت منه. أعني إلى السلطة المملوكيّة بالذات. وإننا لنعلم، استناداً إلى المقداد السيّوري، تلميذ الشهيد المُقرّب، أنها كانت من ضمن المحضر الذي تولّى تنظيمه تقي الدين الخيامي بحقّه. ورفعه إلى قاضي صيدا[٦٥]. ممّا يُشير إلى أنها كانت نتيجة تفاهم أو تنسيق بين الخيامي وبين السلطة.

واستناداً إلى القلقشندي (ت: ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م) فقد كانت الكلمة في عصر النص تعني «**الذي يُنظّم الحُسبانات ويكتبها**»[٦٦]. وهذا، إذا أضفناه إلى ما سبق بيانه، يوضح كل شيء. فهناك، أولاً، الفقهاء الجُدد من تلاميذ الشهيد، قد انتشروا في مختلف الأنحاء، حاملين فكر شيخهم وتوجّهاته. وهناك، ثانياً، حكمه بلزوم دفع الأخماس إلى «نائب الإمام»، أي الفقيه الجامع لشرائط الفتوى. ثم ها هو الآن على رأس تنظيم فيه حُسبانات تُكتب. الأمر الذي ليس قابلاً للفهم، حيث يكون الكلام على مثل الشهيد، إلا بأن يكون المعني به تأسيس نظام للجباية والإنفاق، مُستقل عن

---

٦٤. «السرائر» ط. إيران لات. (طبعة حجريّة)/ ١١٥.

٦٥. «لؤ لؤة البحرين»/ ١٤٦.

٦٦. القلقشندي، أحمد بن علي: «صُبح الأعشى في صناعة الإنشا» ط. القاهرة لات: ٥/ ٤٢٦.

النظام العام. وهذه تُهمة تاريخيّة ضدّ الشيعة الإماميّة، الذين آثروا دائماً دفع ما في أموالهم من حق إلى أئمتهم، والآن إلى فقهائهم.

من السهولة بمكان أن نتصوّر موقف السلطة من اتجاه ينزع إلى تأسيس مفهوم مختلف للشرعيّة. يُخالف تماماً مفهوم الخلافة. الذي كانت تتكئ على صيغة مُرقّعة منه. فكيف وقد بدأ الاتجاه نفسه يتحوّل إلى حيّز التطبيق العملي.

لقد حكم المماليك المنطقة بالسلطان العسكري المباشر. الذي أحسنوه أكثر ممّا أحسنوا أي عمل آخَر. وبالتسويات السياسيّة الدمويّة العنيفة فيما بينهم. مُستندين إلى قاعدة ثقافيّة عمادها تعطيل الفاعليّة الإسلاميّة، في شكليها الفقاهتي والسياسي.

أعني بالسياسي الخلافة، أو بالأحرى ما دبّجوه منها. بعد جائحة التتار وتدمير بغداد وقتل آخر خليفة عبّاسي فيها. ومن بعدُ اخترع المؤسّس والمُنظّر الحقيقي لدولتهم بيبرس البُندقداري (حكم: ٦٥٨-٦٧٦ هـ/ ١٢٥٩-١٢٧٧ م) صيغة سياسيّة مُعقّدة تستند على مبدأ الخلافة العريق. ابتغاء إضفاء شرعيّة على حُكمه.

وأعني بالشكل الفقاهتي، إعلانه هو أيضاً، ومن جانب واحد، سدّ باب الاجتهاد رسميّاً. أي ما يعني عمليّاً إنهاء حُريّة الفقه والفقيه. ووضع حدّ نهائي لقدرته على إبداء الرأي والمشاركة في قضايا الناس السياسيّة والاجتماعيّة. ومن الغني عن البيان، أن ما أتى به الشهيد، في جانبيه الفكري والعملاني، يضرب الاثنين معاً. يضرب الشرعيّة المملوكيّة كما رسمها الدّاهية بيبرس. ويضرب الحدود التي وضعها لحُريّة الفقيه. نافذاً منها إلى الجانب الآخَر، حيث الحدود المحروسة بدقّة للسلطة نفسها.

لسنا ندري ماذا فعلت السلطة لسدّ هذا الخلل غير المُحتسَب، في العمودين الأساسيين لسياستها. بعد أن كانت قد ارتاحت إلى ما رسمه لها مُنظّرها زهاء القرن حتى الآن. سارت فيه الأُمور على أحسن ما يمكن أن يكون بالنسبة إليها. ثم إننا ما ندري أيضاً ماذا كانت تداعيات هذه الروح الجديدة التي نفخها الشهيد في الناس الذين هم موضوع فكره وعمله. وليس هذا الخفاء علينا بالأمر البدع أو المُستغرَب. فهذا هو تاريخنا الرسمي السلطوي. إنه مولع أشدّ الولع بتسجيل ما يحسُن نشره من شؤون السلطة. ثم هو لا يُولي العناية من شؤون العباد إلا لِما تقاطع مع شأن من شؤونها.

لكن القلقشندي يُنجدنا من حيث لم يقصد، وأيضاً من حيث لا نحتسب، بما يُلقي ضوءاً مُنيراً، وإن جزئياً، على موضوع التساؤلين معاً. وذلك إذ يورد نصاً لمنشور «توقيع»، أذاعته السلطة المملوكيّة من دمشق على الناس «بتاريخ خامس وعشرين جمادى الآخرة سنة أربع وستين وسبعمائة»[٦٧]/ ١٧ أيار ١٣٦٢ م. يُورده، ويا لحُسن حظنا، بوصفه مثالاً ونموذجاً يُحتذى «لِما يُكتب في الأوامر والنواهي الدينيّة». في سياق منهجه الرامي إلى تدريب الكُتّاب العاملين في الدواوين الرسميّة على مختلف صنوف التوقيعات والرسائل الرسميّة. وقد صدر التوقيع، فيما يبدو، عن نائب دمشق. ولا شك أن القلشندي حين اختاره دون سواه، لم يكن معنيّاً أبداً بمضمونه التاريخي. الذي يحظى عندنا اليوم بأهميّة كبُرى.

يمكن تقسيم نصّ التوقيع الطويل إلى ثلاثة عناصر:

الأول: المقدمة التقليديّة. وهي غير ذات أهميّة بالنسبة لِما نعمل عليه. إنها مُجرّد استعراض لمسيرة الإسلام، ابتداءً من البعثة النبوية، إلى أن «ظهرت البدع والضلالات، وضلّ كثير في كثير من الحالات». ليصل في النهاية إلى عرض رأيه في الشيعة ومذهبهم، والباقي مفهوم.

الثاني: وصف فريد لمعالم حركة شيعيّة جديدة وواسعة الانتشار. وهو أكثر عناصر التوقيع أهميّة بالنسبة لهذه الدراسة. لذلك فإننا سنُثبت ما نرى أنه موضع الحاجة منه:

«... وقد بلغنا أن جماعة من أهل بيروت وضواحيها، وصيدا ونواحيها، وأعمالها المُضافة إليها، وجهاتها المحسوبة عليها. ومزارع كلّ من الجهتين وضياعها، وأصقاعها وبقاعها، قد انتحلوا هذا المذهب الباطل وأظهروه. وعملوا به وقرّروه. وبثّوه في العامّة ونشروه. واتخذوه ديناً يعتقدونه. وشرعاً يعتمدونه. وسلكوا منهاجه. وخاضوا لجاجه. وأصّلوه وفرّعوه. وتديّنوا به وشرّعوه. وحصّلوه وفصّلوه. وبلّغوه إلى نفوس أتباعهم ووصّلوه. وعظّموا أحكامه. وقدّموا حُكّامه. وتمّموا تبجيله وإعظامه. فهم بباطله عاملون. وبمقتضاه يتعاملون. ولأعلام علمه حاملون. وللفساد قابلون. وبغير السداد قائلون. [...] ويستبيحون نكاح المُتعة ويرتكبونه [...] إلى غير ذلك من فروع هذا الأصل الخبيث»[٦٨].

٦٧. «صبح الأعشى» ١٣ / ١٣ - ٢٠.
٦٨. «صبح الأعشى»: ١٣ / ١٥.

من الجلي أننا في هذا أمام كلام يُضمر وجهين : فعل، هو ما يصفه من حركة واسعة الانتشار، سنُعلّق على ما يقوله عن مواطنها بعد قليل . وارتكاس عليه من السلطة هو التوقيع نفسه . بالإضافة إلى ما وراءه من موقف تاريخي من أصحاب تلك الحركة . والتوقيع يُلقي ضوءاً مُنيراً على الوجهين معاً. وهما هما موضوع التساؤلين اللذين طرحناهما قبل قليل .

فلنبدأ بالتعليق على الجانب الجغرافي .

وأول ما نُلاحظه هنا سعة الرُّقعة التي ظهرت وعملت فيها الحركة الجديدة. «بيروت وضواحيها، وصيدا ونواحيها، وأعمالها المُضافة إليها، وجهاتها المحسوبة عليها. ومزارع كلّ من الجهتين وضياعها، وأصقاعها وبقاعها».

والمعنيّ بـ«بيروت وضواحيها» ثم بمزارعها واضح إجمالاً. ذلك أن الضواحي الجنوبيّة للمدينة كانت وما تزال مناطق سكن شيعيّة. لكن المفاجأة هنا هي في هذه الإشارة الواضحة إلى ثقل سكاني شيعي في المدينة نفسها. التي كانت في زمان النصّ تقتصر على منطقة المرفأ وما يُحيط بها. ثم أن علينا أن نُلاحظ أن النصّ يُميّز بين هذه، أعني «بيروت وضواحيها»، وبين «مزارع كلّ من الجهتين». حيث يعني بإحدى الجهتين بيروت. والتمييز يُشير حتماً إلى آخَر في ذهن الكاتب، وطبعاً في الواقع أيضاً. ونحن نُرجّح أنه يعني بمزارع جهة بيروت قريتي كيفون و القماطيّة. وهما كانتا أيضاً منذ زمن غير معروف، وما تزالان منطقتي سكن شيعيتين. خلافاً لرأي الدكتور كمال صليبا، الذي حار في حلّ لغز هُويتهما المذهبيّة، في مُحيط غير مُجانس. فذهب إلى أنهما نشأتا سكانياً، بتحوّل جماعات شيعيّة إليهما بقصد العمل. ثم استقروا فيهما[٦٩]. وهو رأي يصعب قبوله لأسباب ليس هذا محل بسطها. وهاهو التوقيع يتحدث عن مزارع مسكونة بالشيعة في جهة بيروت ممّا يُشير إلى وجود مُستقرّ وثابت وفاعل لهم في تلك المنطقة.

أمّا «صيدا ونواحيها. وأعمالها المُضافة إليها. وجهاتها المحسوبة عليها» ثم مزارعها وضياعها وأصقاعها وبقاعها». فلا ريب أنها تعني، فيما تعني، ما نعرفه باسم جبل عامل. ولعلّ مُنشئ التوقيع قد صدف عن الاسم، ومال إلى هذه الصيغة التي يبين فيها قصد الاستيفاء، لأن جبل عامل كان قد أصبح في ذلك الأوان بُقعة صغيرة نسبيّاً. بعد القسمة الإداريّة المملوكيّة. التي سبق

٦٩. كمال صليبا : «تاريخ لبنان الحديث» ط. بيروت ١٩٧٩ م / ٣٤.

ذكرها فيما وقفنا عليه من تطوّر الاسم والمُسمّى . وهو يرمي إلى أن يُظهر لقارئي التوقيع وسامعيه الطّامّة الدهماء التي نزلت بالأُمّة من هذه الجماعة . ولذلك رأيناه لا يترك مُفردة ممّا تُسمّى به البقاع إلا وزجّها : نواحي، أعمال، جهات، مزارع، ضياع، أصقاع، بقاع . ولنُلاحظ أن لا ذكر لمدينة صور في هذا المُعتَرك الواسع . ولا نعرف لذلك سبباً .

خلاصة القول : إننا نفهم من مُجمل الكلام، أن الحركة التي سيصف معالمها، قد غطّت الساحل كلّه، من بيروت إلى آخر ما تعنيه نواحي صيدا . ثم صعوداً في جبل عامل الجغرافي .

ما بقي من التوقيع يتركنا نعتقد أننا أمام أمر حادث جديد . لم يكن ثم كان . ونحن نقبل هذا التوصيف لأسباب واضحة . لا أقلّ من ضرورة تفسير انبعاث السلطة . الذي هو تعبير عن قلقها ممّا يحدث . والذي لو لم ترَفيه تهديداً جدياً لحكمها، لَما خرجت على الناس بهذا التوقيع الرنّان . لكننا نتحفّظ على قولها : «قد انتحلوا هذا المذهب» . لأنه يعني أن التمذهب به أمر حادث جديد، لم يكن ثم كان، غير بعيد عن تاريخ إصدار التوقيع . وكأنها تريدنا أن نفهم أن انتحال «هذا المذهب» من جُملة ذلك الحدث الجديد . وهو أمر غير صحيح من دون أدنى ريب . إذ لا شك أن المعنيين بالكلام كانوا شيعة هم وآباؤهم من قبل . وما كان هناك انتحال ولا مُنتحلون . نعم، هم «أظهروه . وعملوا به وقرّروه . وبثّوه في العامّة ونشروه» وذلك ما هزّ السلطة وأقلقها . أو فلنقُل، إن ما أقلقها في الحقيقة ليس ما أفصحت عنه الكلمات صراحةً، بل النتائج السياسيّة المُتوقّعة من هذه الروح الجديدة . التي تُفصّل الفقرة الأُولى ممّا اقتبسناه من التوقيع وجوهها ومظاهرها .

وأول ما نقف عليه من ذلك قوله «أظهروه»، يعني «هذا المذهب الباطل» . والإظهار لا يكون إلا بعد استخفاء . إذن، فهذا نصّ على أن المعنيين بالكلام كانوا من قبل لا يعالنون بشعائرهم ومُعتقداتهم . يتّقون بذلك تُقاةً . ثم لم يعودوا يُبالون بغضب مَن يغضب، ورضى مَن يرضى . بل يعملون على أن يكونوا هم أنفسهم، فيما يُعلنون، وفيما انطوت عليه ضمائرهم . وغني عن البيان، أن هذا التبدّل أمارة على حالة جديدة قد دخلت فيها الجماعة . إعلاناً عن خروجها من حالة الإحباط والخوف والاستكانة، إلى حالة الاعتداد بالنفس والطمأنينة وتوطين النفس على الصّدام إذا لزم الأمر . وتوصيف هذه الحال هو الأكثر أهمية ممّا نخرج به من قراءة ما بقي من الفقرة . وما الباقي إلا مزيد بيان له، وتعليل لأسباب حدوثه .

من القسم الأول قوله : «عملوا به وقرّروه . وبثّوه في العامّة ونشروه . واتخذوه ديناً يعتقدونه . وشرعاً يعتمدونه . وسلكوا منهاجه . وخاضوا لجاجه . وأصّلوه وفرّعوه . وتديّنوا به وشرّعوه . وحصّلوه وفصّلوه» . وإننا لنفهم من الكلام إجمالاً ، أنه يدلّ على حركة عارمة . نالت عقائد القوم ونظام حياتهم . وكيف ينظرون إلى أنفسهم وموقعهم من المجتمع الذي يعيشون فيه . وقد قصد الكاتب ، هنا أيضاً ، إلى استيفاء كامل جوانب الموضوع . للمرمى نفسه الذي دعاه من قبل إلى حشد كل ما خطر له من مُفردات جغرافيّة . وكذلك يرجع قوله «اتخذوه ديناً يعتقدونه» و «تديّنوا به» إلى مثل ما قصد إليه من قوله «انتحلوه» .

ومن القسم الثاني ، أعني تعليل ذاك الذي حصل ، قوله «بلّغوه إلى نفوس أتباعهم ووصّلوه» . والتبليغ يعني ضمناً مُبلّغين . فهذا استنتاج يتقاطع مع ما قلناه قبلُ عن تلاميذ الشهيد ، وعن انتشارهم في مُختلف القُرى والبلدان ، في جبل عامل وخارجه . حاملين أفكار شيخهم . وهذا التقاطع من أقوى الأدلّة ، لأنه يأتينا من مصدرين مختلفين ، لا علاقة بينهما . وعليه يُمكننا القول ، إن كل تلك الحركة العارمة هي من تأثير أُولئك الفقهاء الجُدُد . الذين يُشير النصّ بأوجز عبارة وأوفاها إلى الموقع المُتقدّم الذي اكتسبوه بسرعة عند شعبهم . إذ قال : «وقدّموا حُكّامه» . جزاءً وفاقاً للعمل الإحيائي الذي أنجزوه . فضلاً عمّا في قوله «حُكّامه» من إشارة غير خفيّة إلى ما كان لهم بين أتباعهم الشيعة من سلطان أدبي . ليس من العسير على القارئ، الذي عرف ما يكفي من أفكار الشهيد وأعماله ، أن يُقيم الصلة بينهما .

والفقرة نفسها تُبيّن جانبين ممّا يتصل بما كنا قد أسميناه ووصفناه بالروح الجديدة ، التي نفخها الشهيد في نفوس الناس ، في منطقة عمله . تقصر عن بيانها كافة النصوص ، التي تتحدّث بلسان أو بآخَر عن أعماله . ونحن ، وإن لم نجد في نصّ التوقيع ذكراً صريحاً لها ، لكننا لا نجد مندوحة عن نسبة نفخها إليه دون سواه . لِما تشهد به وتُشير إليه من منزع فكري ومن حالة تنظيميّة ، وإن شئت قلت تحريضيّة أو مطلبيّة . لا يمكن أن يكونا قد نشأا عند الناس عفواً ، ومن دون مُنظّر وباعث . وليس في الميدان ، وقد غدا القارئ يعرفه جيداً ، إلا الشهيد وفكره وعمله . هذا ، فضلاً عن التطابق التامّ بين المنزع الفكري والحالة التنظيميّة ، وبين مظاهر سلوكيّة وصفتها الفقرة بدقّة وبسط لا مزيد عليه .

- الثالث : إنذار مُوجّه إلى المُخاطَبين . من الواضح أنه غرض السلطة وبُغيتها في النهاية :

«وأردنا أن نُجهزّ طائفة من عسكر الإسلام ، وفرقة من جُند الإمام . نستأصل شأفة هذه العُصبة المُلحدة . ونُطهرّ الأرض من رجس هذه المفسدة . ثم رأينا أن نُقدّم هذا الإنذار ، ونسبق إليهم بالإعذار . فكتبنا هذا الكتاب . ووجّهنا هذا الخطاب . ليُقرأ على كافّتهم ، ويُبلّغ إلى خاصتّهم وعامتُهم . يُعلمهم أن هذه الأمور التي فعلوها ، والمذاهب التي انتحلوها تُبيح دماءهم وأموالهم ... »

الإنذار لوضوحه مُستغنٍ عن كل تعليق . لكن السؤال هنا : لماذا «تسبق إليهم بالإعذار» وهي الدولة التي آثرت دائماً الحسم بحدّ السيف ، بحكم ذهنيتها العسكريّة؟

يصعُب القول على نحو الجزم . لكننا نذكر احتمالات :

- الأول : حصانة جزين الطبيعيّة ، مركز الحركة وقلبها . وهي التي استعصت على الصليبيين في الماضي غير البعيد جداً .

- الثاني : سعة انتشار الحركة . وقد عرفنا أنها غطّت رقعة واسعة جداً . بحيث أن القضاء عليها بالقوة يستدعي عملاً عسكرياً واسعاً وكبيراً . ربما لم تكن الأمور مُهيّأة له .

- الثالث : غياب شخصيّة تحريضيّة ، تؤدّي مثل الدور الذي تولاّه ابن تيميّة في كسروان ، قبل ما يزيد قليلاً عن نصف قرن . بحيث نجح في جرّ الدولة وراءه إلى عمل عسكري كبير محفوف بالمخاطر ، لافائدة سياسيّة لها منه . بل ربما أدّى إلى مُشكلات كانت في غنى عنها . ومنها ، مثلاً ، الفراغ السكاني الذي نشأ في الجبل نتيجة تهجير سكانه الأصليين . وما ترتّب عليه من مُشكلات أمنيّة وإنتاجيّة .

- الرابع : الافتقار إلى قرار سياسي مركزي . يصدر عن السلطة العليا في القاهرة . ولنتذكّر أن التوقيع صدر عن السلطة المحليّة في دمشق . ولنُضف إلى ذلك ، أننا لم نرصد في الكتابات التاريخيّة المعاصرة في مصر ، أدنى إشارة إلى أن أمراً جللاً يحدث أو حدث في المنطقة . ممّا يدلّ على أن الاهتمام به كان محليّاً .

تلك الأسباب أو بعضها ، وربما غيرها ، جعلت السلطة تكتفي بإصدار ذلك التوقيع . بدلاً عن أُسلوبها المعتاد والأثير . المهم بالنسبة إلينا أن هذا الاختيار منحنا فرصة نادرة للتحرّ ، وإن

مؤقتاً، من التاريخ السلطوي. وبذلك أعطانا أن نُجيب على السؤالين اللذين طرحناهما قبل قليل. فهو بيّن لنا بأوضح بيان ماذا فعلت السلطة لسدّ ذلك الخلل في سياستها الرسميّة. خلل وصفناه قبل قليل بأنه «غير مُحتَسب». فعرفنا بأنها اكتفت حتى الآن بسلاح التهويل والترهيب. ثم أنه بيّن لنا ملامح أساسيّة من تداعيات هذه الروح الجديدة، التي نفخها الشهيد في الناس الذين هم موضوع فكره وعمله. فعرفنا منه أيضاً، أنهم استجابوا بحركة عارمة ذات وجوه. وصف التوقيع مظاهرها وصفاً دقيقاً. لسنا نجده ولا أقلّ منه بكثير عند غيره. وليس من العسير على القارئ أن يُفسّر، دون كبير جُهد، الاستجابة وشمولها. وهو الذي عرف حالة الإحباط والتخوّف التي عانى منها الشيعة في الساحل، خصوصاً بيروت و صيدا، بسبب الاكتساح العسكري لكسروان ثم السكاني لمناطقهم.

(٨)

ولنختم هذا القسم بنصّ وصيّة الشهيد. لِما فيها من فوائد. يتصل بعضها بما خُضنا فيه من سيرته بقسميها. وهي وصيّة جامعة. فيها العبادي. وفيها الأخلاقي. ومن هذا الأخير الإيصاء بالصبر في المواطن، أي في مشاهد القتال. وهي تعكس بعناصرها المتنوعة هموم صاحبها تجاه الشعب الذي أيقظه. وغرس فيه روحاً وثّابة وعزماً. فكأنه أفرغ فيها رؤيته للمستقبل. حاثّاً إياهم على الإعداد له. بالتوجّه إلى الله سبحانه، وبالتحلّي بالفضائل، وبالتكاتف والتضامن والصبر عند لقاء الخصوم.

والوصيّة وثيقة نادرة. نشرها البحّاثة الدكتور حسين علي محفوظ في كرّاس برأسه. صدّره بسيرة موجزة لصاحبها. وقد ذكر في صدرها أنه نقلها من مجموع مخطوط لمؤلف إيراني. نقلها هذا عمّن نقلها من خط ابن الشهيد. ولعلّه يعني الشيخ علي. لِما عُرف به من عناية خاصّة بتراث والده وأخباره.

> « هذه وصيّة العبد الضعيف، كاتب هذه الأحرف، محمد بن مكي. تاب الله عليه توبة نصوحاً، وكان عن هفواته وزلاّته صفوحاً. إلى إخوانه في الله، وأحبابه لله. يبدأ بنفسه ثم بهم. وهي مُشتملة على أمور»

«أولها تقوى الله تعالى فيما يأتون ويذرون. ومُراقبته ومخافته. والحياء منه في الخلوات.»

«وثانيها ذكره بالقلب على كل حال، وباللسان في معظم الأحوال.»

«وثالثها التوكّل عليه. وتفويض الأمر إليه. والالتجاء عند كل مُهمّ إليه.»

«ورابعها التمسّك بشرائع الدين. فلا يخرج عنها شعرة. لئلاّ تحصل الضلالة.»

«وخامسها المباشرة على الفرائض، من الأفعال والتروك. بحسب ما جاءت به الشريعة المطهّرة.»

«وسادسها الاستكثار من النوافل، بحسب الجهد والطاقة، والفراغ والصحّة. وخصوصاً الصلوات المندوبة. فإنها خير موضوع. وما يُقرّب إلى الله بعد المعرفة أفضل منها. وخصوصاً الليليّة منها.»

«وسابعها كفّ اللسان عن الهذر والغيبة والنميمة واللغو. وكفّ السّمع عن اللغو. وعن سماع كل ما لافائدة فيه دنيويّة أو دينيّة. وكفّ الأعضاء عن جميع ما يكرهه الله تعالى.»

«وثامنها الزهد في الدنيا بالمرّة. والاقتصار على البُلغة منها، والقوت من حلّه. ومهما أمكن الاستغناء عن الناس فليفعل. فإن الحاجة إليهم الذل الحاضر.»

«وتاسعها دوام ذكر الموت والاستعداد لنزوله. وليكن في كل يوم عشرين مرّة. حتى يصير نصب العين.»

«وعاشرها مُحاسبة النفس عند الصباح والمساء على ما سلف منها. فإن كان خيراً استكثر منه. وإن كان شراً رجع.»

«وحادي عشرها دوام الاستغفار بالقلب وباللسان. وصورته: اللهم إغفر لي فإني أستغفرك وأتوب. ومن وصيّة لقمان لابنه، أن يُكثر من اللهم اغفر لي. فإن لله أوقاتاً لا يردّ فيها سائلاً.»

«وثاني عشرها الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر، مهما استطاع. على ما هو مُرتّب شرعاً.»

«وثالث عشرها مُساعدة الإخوان والتعرّض لحوائجهم، بحسب الحاجة والمُكنة. وخصوصاً الذرّيّة العلويّة والسلالة الفاطميّة.»

«ورابع عشرها التعظيم لأمر الله تعالى. والتعظيم لعلماء الدين وأهل التقوى من المؤمنين.»

«وخامس عشرها الرضى بالواقع. وأن لا يتمنّى ما لا يدري أخير هو أو لا. ودوام الشكر على كل حال.»

«وسادس عشرها الصبر في المواطن. فإنه رأس الإيمان.»

«وسابع عشرها دوام الدعاء بتعجيل الفرج. فإنه من مُهمّات الدين.»

«وثامن عشرها دوام دراسة العلم، مطالعةً وقراءةً وتدريساً وتعلّماً. ولا تأخذه فيه لومة لائم.»

«وتاسع عشرها الإخلاص في الأعمال. فإنه لا يقبل الأركان إلا خالصاً صافياً. والرياء في العبادة شرك. نعوذ بالله منه.»

«وعشرونها صلة الأرحام ولو بالسلام، إن لم يكن غيره.»

«وحادي عشرونها زيارة الإخوان في الله تعالى ومُذاكرتهم في أُمور الآخرة.»

«وثاني عشرونها أن لا يُكثروا في الرّخص والأخذ بها والتوسعة. ولا يُكثروا من التشديد على أنفسهم. بل يكون بين ذلك قواما.»

«وثالث عشرونها أن لا يدع وقتاً بغير فائدة دينية أو دنيويّة.»

«ورابع عشرونها مُعاشرة الناس بما يعرفون. والإعراض عمّا يُنكرون. وحُسن الخُلق. وكظم الغيظ. والتواضع لهم. وسؤال الله تعالى أن يُصلحهم ويصلُح لهم.»

«وملاك هذه الأمور كلها تقوى الله ودوام مُراقبته. والسلام عليهم جميعاً. والحمد لله وحده. وصلّى الله على محمد وآله أجمعين».

٣- مامكث من فكر الشهيد وعمله

(١)

نعتقد أنه كان من المحتوم الذي لا رادّ له، أن تصل بالشهيد حركتُه إلى تلك النهاية المُحزنة. التي لا بدّ من أن تصل إليها حركة اتّسمت بهذا القدر من الفروسيّة. أي نُبل الغاية، دون حُسبان الشروط الموضوعيّة. بالمنظار التاريخي، الذي يعني فيما يعني ميزان القوى العسكري والسياسي، لم تكن أمام الشهيد أدنى فرصة للنجاح الشخصي.

ومع ذلك، فإننا نرى أن السلطة المملوكيّة قد تعاملت معه شخصياً ومع حركته بقدر غير قليل من الصبر وطول الأناة. بالقياس إلى ما نعرفه عنها من حديّة وحزم وقسوة مع كل ما ومَن يُهدّد سلطانها. ربما للأسباب التي استعرضناها قبل قليل أو لغيرها. والشهيد من جانبه لم يقطع مع أحد بحال. ومن ذلك، أنه لم يضرب على نفسه العزلة في منطقة نفوذه. ولقد كان له من مسقط رأسه جزين حصن حصين لو شاء. بل عمل على أن تكون له صلات طيبة مع فقهاء العاصمة الإقليميّة دمشق. وكان له فيها مجلس حفيل، مقصود من فقهائها [٧٠]. كما بنى علاقات حميمة في الشام مع فقهاء من غير الشيعة ذوي مكانة عالية [٧١]. كما كانت له علاقات وديّة جداً مع بعض رجال السلطة في دمشق [٧٢]. ويُقال إنه أرسل أحد تلاميذه في مُهمّة إلى مصر، حيث توفي هناك [٧٣].

والخبر يسكت عن بيان المُهمّة التي كُلّف بها الرسول. ربما لأنها لم تكن مُعلنة. كما يسكت عن سبب وفاته وتاريخها. ومن المُحتَمل أن المُهمّة كانت سياسيّة. رمى بها الشهيد إلى تأسيس علاقة ما مع السلطة المركزيّة. أو لبيان حُسن نواياه تجاهها. ولا دليل عندنا على شيء من ذلك أو شبيهه. لكننا نراه ينسجم مع شخصيته وطريقته. وخصوصاً مع نمطه السلوكي الانفتاحي. بحيث أنه بنى تلك الصلات الطيّبة مع الجميع. ومن المُستبعَد جداً أن رجلاً كهذا يستبعد أو يضع خارج حساباته الجالس على العرش في القاهرة.

---

٧٠. «أمل الآمل»: ١/ ١٨٣.

٧١. «غاية النهاية»: ٢/ ٢٦٥.

٧٢. «مستدرك الوسائل»: ٣/ ٤٤٢.

٧٣. «أعيان الشيعة»: ٨/ ١٧.

(٢)

مهما يكن، فقد أقدمت السلطة أخيراً على قتله، بقرار سياسي عالٍ فيما يبدو. ولسنا ندري ما كانت علّة تخلّيها عن السياسة التي التزمتها منه مدة ربع قرن. كما أننا لا نعرف على نحو اليقين السبب المُباشر، أو على الأقلّ المُعلَن، لقتله. وإن كنا قد حاولنا ذلك فيما كتبناه عنه من قبل[٧٤]. وعلى كل حال، فإننا نرى هذا التفصيل غريباً هنا عن مرامينا.

لكن من المؤكّد أنها كانت جريمة غبيّة، بقدر ماهي نكراء. خصوصاً وأن الرجل كان في حوالي السبعين. أي أن رصيده من العمر لم يكن بذاك. ولم يكن يَضيرها أن تنتظر قليلاً. إن كانت ترى أن موت الرجل أمر مطلوب، أو لابد منه لمصلحتها.

من الغني عن البيان أن السلطة أرادت بفعلتها أن تُسكت صوته، أو أن تُعيد عقارب الساعة إلى الوراء. وبالبُعد هذا الغرض. والسؤال الذي يستحق أن يُطرح أيضاً هو: لماذا تركته يعمل بكامل الحريّة تلك المدة الطويلة، قبل أن تُفكّر بإجراء حاسم؟ خصوصاً وأننا قد عرفنا أنه كان كثير التردّد على دمشق. ممّا يدل على أنه كان مُطمئناً من جهتها. وأنه كان في متناول يدها ساعة تشاء. إنه لأمر مُحيّر حقاً. لسنا نجد له تفسيراً. سوى أن سياسة المُهادنة أو السكوت، كانت تتصل بتوازنات سياسيّة ما. فلمّا سقطت أو تبدلّت أودت بالشهيد.

(٣)

كانت لقتلة الشهيد رنّة حزن عميقة، وإن تكن صامتة. ومن الأمارات الباقية على ذلك أن الناس، دون قرار من أحد فيما يبدو، أطلقوا عليه لقب «الشهيد». هكذا، على الإطلاق. وهم الذين ينتمون إلى مذهب لا يشكو أبداً من نُدرة الشهداء. وظلّ هذا اللقب علماً عليه وحده، ينصرف إليه دون مَن سواه، مدّة تقلّ قليلاً عن قرنين من الزمان. أي حتى قتل العثمانيون زين الدين بن علي الجُباعي سنة ٩٦٥ هـ/ ١٥٥٧م. وقد كان بقتلته النضاليّة مُذكّراً بسلفه الكبير. فلقّبوه «الشهيد الثاني». فصار لزاماً أن يميزوا ابن مكي بالأول. وما يزال هذان اللقبان علماً عليهما دونما ثالث. على كثرة مَن نال الشهادة من بعدهما.

---

٧٤. «ستة فقهاء أبطال» ط. بيروت ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٤ م/ ٩٨ - ١٠٧.

(٤)

إن تكن حركة الشهيد قد فشلت في أوانها فشلاً شخصيّاً، ذلك الفشل المأساتي، فإنها نجحت تاريخيّاً نجاح الدعوات الكبرى. التي تنتهي غالباً بمأساة. لكن الزمن وحده يكشف أن قتل البطل كان أشبه بتفتّق البذرة في جوف الأرض: موتاً آنيّاً شخصيّاً، وحياة مستقبلة جماعيّة، في الآن نفسه.

بالمنظار الاجتماعي والثقافي، خطا بقومه الخطوة التي لاعودة عنها: أسّس لوطنه حركة علميّة مستقلّة، متُصلة بأعماق الثقافة الخاصّة. بدأت فوراً تُعيد إنتاج نفسها. بإنتاج مثقفين مُنتمين، وإن شئت قلت: عضويين، اتجهوا فوراً إلى العمل في مختلف الميادين الفكريّة والاجتماعيّة والثقافيّة. ومنح البُنية الثقافيّة المحلّيّة، التي كانت في حالة تحفز نحو اكتساب الذاتيّة، فكرها السياسي الخاص. فزوّدها برؤية. ووضع أمامها هدفاً، وإن يكن بعيداً. وبذلك أغلق الهُوّة التي ظلّت فاغرةً زهاء خمسة قرون، من الاستلاب والعجز عن الانطلاق. ولم يعُد في طوق أحد أن ينتزع منها هذا المكسب التاريخي.

نعتقد أن قارئاً وعى قلبه جيداً ما وصفناه من تطوّر الأحوال بجبل عامل، لن يكون من العسير عليه أن يرى، مثلما نحن نرى الآن، في أفكار وأعمال الشهيد بداية صفحة جديدة من التاريخ الثقافي لوطنه. وباباً مُشرعاً باتجاه النهضة. التي يدين لها بذلك الصيت العريض الذي دخل به التاريخ. ثم أن يلمس بما هو أشبه بلمس اليد «جبل عامل الثقافي». الذي عالجنا معناه وظروف ولادته في الفصل الأول. إذ يرى بكامل الوضوح أن الصفحة الجديدة هي، في بعض وجوهها، إستمرار لمرحلة سابقة. يتجلّى هذا الإستمرار في وحدة كيان شدّت عُراه الوحدة التاريخيّة الثقافيّة، المأزومة بالاحتلال الأجنبي وكل ما نتج عنه. وكان من أثر الشهيد أن أغنى، وتلاميذه من بعده، ذلك الشعور العميق بالوحدة خلفيّة الكيان. فغدا على يده ويدهم مشروعاً. بعد أن كان تراثاً. والمشروع بكافة عناصره لمّ جبل عامل إلى المناطق المُتاخمة له من سهل البقاع. بحيث تجاوزت الوشيجة الجديدة كل الوشائج التقليديّة. فاخترقتها وفرضت نفسها، حتى بتحوير دلالة الاسم التاريخيّة. وذلك أمر لا نعرف له مثيلاً. وإنه لدليل ساطع على السطوة الهائلة التي تمتّعت بها البُنية الثقافيّة الجديدة.

(٥)

ذلك هو باب النهضة المُشرَع . وتلك فاتحته . أمّا النهضة نفسها فهي حكاية ما بقي من الزمان حتى مقتل الشهيد الثاني، زين الدين بن علي الجُباعي . وهذا إلماح إلى أنها نهضة مؤطّرة من جانبيها بالدم المُهراق . بدأت بشهيد . وختُمت بشهيد . كما أنها أعمال الرجال الذين كانوا أبناءها وآباءها . لأنها أنجبتهم وبهم استمرّت . فكانوا ثمارها ومعارجها في آن معاً . ثم أنها قصّة مَوَاطنها التي تحرّكت ما بينها . تستقرّ في هذا زمناً، وفي ذاك آخرَ . ولكل مُستقرَ قصته وظروفه ورجاله . وسيكون على الباحث منذ الآن أن يستفرغ وسعه في الإلمام بهذه الوجوه جميعاً .